رواية

سارة خاراميّو كلينكيرت

# كيف قتلتُ أبي

ترجمة:
محمد الفولي

ممكن جدا ..

# كيف قتلتُ أبي

سارة خاراميِّو كلينكيرت

Author: Sara Jaramillo Klinkert

# Cómo maté a mi padre

© Copyright

Translated from Spanish by:
**Mohammed Al-Fawly**

ترجمها عن الإسبانية:
**محمد الفولي**

Book Design:
**Sarwar Murad**

الإخراج الفني:
**سرور مراد**

Book Cover Design:
**Markly**
www.markly.net

تصميم الغلاف:
**ماركلي**

مكتبة
t.me/soramnqraa
٢٣٥٢٠

الطبعة الأولى | سبتمبر 2022
ISBN: 978-9921-712-59-9
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية – دولة الكويت:
1608-2022

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر
© Alkhan Publishing & Distribution

+965 99462291 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw
info@daralkhan.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

مكتبة | ١١٦٨

رواية

# كيف قتلتُ أبي

سارة خاراميِّو كلينكيرت

ترجمة

**محمد الفولي**

2022

Author: Sara Jaramillo Klinkert

# Cómo maté a mi padre

2022

إلى أبي، حتى وإن لم يستطع قراءته.

إلى أمي، التي اضطرت إلى أن تصبح أبًا أيضًا.

هذا ما قالوه لي:

مات أبوك

لن تراه أبدًا

افتح عينيه

للمرة الأخيرة

شمَّ رائحته والمسه

للمرة الأخيرة

تفقَّده بيدك المرهوبة

تشمَّمه كأنك تلاحق

أثر موته

افتح عينيه قليلًا

لعلّك تقدر أن تنظر

إلى حيث هو الآن

رامون بالوماريس،

اخترت موت أبي

مكتبة
t.me/soramnqraa

رمَوْني بالرصاص في مرّات كثيرة، لكنني لا أموت أبدًا. أصحو كلّما أوشكت الرصاصة على إصابتي. أتساءل عما سيحدث في اليوم الذي لن أصحو فيه. ربَّما سأموت فعلًا. ربَّما لا، لا يُمكن معرفة الأمور سلفًا. أنا، على سبيل المثال، لم أعرف أنَّ أبي سيُقتل. ما من طفل يحسب أنّ أمرًا كهذا قد يحدث، لكنه يحدث. ما زال يشق عليَّ تصديق أن خمسة وثلاثين جرامًا من الصلب، وجرامًا واحدًا من البارود تمكَّنت من القضاء على عائلة. مع ذلك، أشهد بهذا الأمر، إذ قضت على عائلتي.

حلمي بالرصاصة متكرّر. ربَّما مردُّ الأمر كثرة تخيلي لها وهي تخترق جسد أبي، ولأنهم أيضًا أشهروا السلاح في وجهي مرّات كثيرة: مرَّة لسرقتي، وأخرى لسرقتي من جديد، وثالثة لتحذيري كي أستدير وأنا أرى رجلًا يوشك على قتل رجل آخر. لكن المرَّة الأولى أكثر واحدة أتذكرها. حدث الأمر عبر نافذة سيارتنا. كرهت هشاشة الزجاج، وبطء المحرك، وسرعة الدرّاجة النارية التي لاحقتنا طوال الطريق. المرَّة الأولى التي صوّبوا فيها سلاحًا إليَّ هي ذاتها المرَّة الأولى التي كرهت فيها

أبي لأنه أجبرنا على السفر إلى خيراردوتا*. سيظلُّ ما يتبقى من حياتي موجودًا أمامي للومه على انخداعه بالأسباب التي شجّعته على اصطحابنا إلى هناك لنصلي أمام "سيدنا الراكع"**.

لم يكن أبي رجلًا محبًّا للصمت. على الإطلاق. عرف كلّ الكلمات الموجودة في العالم، وحينما لم يسعفه أيٌّ منها، ابتكر كلماته الشخصية، فبدا الحديث معه كتجربة لإعادة ابتكار العالم وتسمية أشيائه. لطالما أشار إلى أماكن لا وجود لها على الخرائط، فانغرست راسخة في عقولنا كأننا قضينا عطلاتنا فيها. أكثر ما راقه هو إطلاق الألقاب على الناس والمبالغة في رسم التعبيرات على وجهه. راقه هذا الأمر، فوق أي شيء، ولم يغلبه شخص آخر فيه.

اعتاد أن يُخفي أثمن أغراضنا وألا يعيدها إلينا إلّا بعد قبض ثمنها بطُرقه الخاصة، مثل أن نسير فوق أيدينا، أو أن نبقى واقفين على قدم واحدة لعشر دقائق، أو أن نحمل آنية ماء فوق رؤوسنا من دون أن تنسكب منها قطرة واحدة، أو أن نكرّر عبارات مستحيلة في ألعاب اللعثمة من دون أن نُخطئ، أو أن نجتث الحشائش. كان مهووسًا بمسألة الحشائش. لطالما راقه أن يُشذبها، وأن يضع سماد الأشجار، وأن يقطف ثمار الفاكهة الناضجة وأن يجتثّ الأعشاب الضارة، بمجرد وصوله من مكتبه. ساعدته بنفسي في بعض المرّات؛ لا لأن الأعشاب

(1) * مدينة كولومبية تقع في مقاطعة أنتيوكيا. (المترجم).

(2) ** منحوته خشبية للسيد المسيح تعود إلى عام ١٧٩٩ وموجودة في إحدى كاتدرائيات مدينة خيراردوتا. (المترجم).

الضارّة شغلت بالي، وإنما لأنها هكذا باتت عذرًا كي أقضي المساء بطوله إلى جواره.

عمل محاميًا ولم يخسر أيَّ قضيّة. تحولت صالة بيتنا وهو يُحضِّر قضاياه إلى مكان لا يصلح للسير، إذ غطّته الأوراق والكتب والملاحظات. تزيّنت الجدران بالبطاقات التي دوَّن فيها أمورًا لم نفهمها، لكنني استرقت النظر إليها أنا وإخوتي عبر النافذة بانبهار. لطالما تابع طلاب القانون وأساتذته منازعاته القضائية من كثب، ومعهم صحافيّون وأناس عاديّون ودُّوا فقط أن يسمعوا كيف يدافع عن موكّليه الذين دفعوا له للقيام بهذا الأمر تحديدًا.

لكنّه عاش في تلك الأيام في صمت، كأنّ كلماته قد نفدت. قضى لياليَ طوالًا وهو عاجز عن النوم، وكلّما ذهبنا إلى المدرسة توقّف أمام الإشارة الخضراء، وهو ينظر إلى نقطة معينة، وهو تائه في أحد تلك الأماكن التي اعتاد أن يبتكرها. لم تكفّ السيارات الواقفة وراءنا عن ضرب أبواقها والصراخ بأمور متنوعة كي ينطلق، ولأنه كان يظلّ بلا حراك، اعتدت أن ألمسه في كتفه بلطف، لأنّني لو فعلتُ العكس، لانتفض بصورة تُثير الفزع. خطرتْ له في تلك الأيام أيضًا فكرة أن ينذر شيئًا لـ"سيدنا الراكع". ضحكت أنا وإخوتي لأننا لم نعرف من هو هذا "السيد" ولا أين يركع، ولماذا أصلًا أصرّ أبونا على زيارته ليقدم إليه نُذُرًا.

كانت أيامًا غريبة في ميديين. أذاعوا في التلفاز كيف انفجرت القنابل وكيف قُتل الناس، وصار الوقوف عند الإشارات المرورية إلى جوار أيّ دراجة نارية أخطر شيء في الوجود. يُمكنك أن تفعل أيَّ شيء إلّا هذا. لو أن حظَّك جيد، فسيسرقون السيارة، ولو أنه سيئ، فسيقتلونك لسرقتها. ليسوا سوى أطفال تظاهروا بكونهم قتلة مأجورين. أطفال من قرى صغيرة ليس لديهم شيء يخسرونه، ومال قليل ليكسبوه بالضغط على الزناد. أطفال لديهم مذبحان في بيوتهم: صلّوا في أولهما لبابلو إسكوبار كي يستمر في توفير العمل لهم، وفي الثاني إلى السيدة العذراء كي تضبط رمايتهم. كان المذبحان فعّالين جدًّا.

كانت أيّامًا غريبة إلى درجة أنها غيّرت إيقاع حياتنا، إذ اضطررنا إلى البحث عن طرق مختلفة للذهاب إلى المدرسة وتنويع مواعيدنا، وتغيير سيارتنا على فترات لتضليل العدو. الأعداء في كل مكان، في الإشارات كلها، وفوق الدراجات النارية كلها. وجب وضع شرائط لاصقة متقاطعة على شكل علامة الضرب فوق نوافذ البيوت لكيلا يتهشّم زجاجها مع انفجار القنابل، وأن يفتح المرء فمه إلى أقصى حد، وأن يُغطي أذنيه، وأن يبقى صامتًا بعد سماع أي انفجار. علّموني هذه الأمور في المدرسة. قبل ذلك، اعتدنا في المدرسة أن ننفّذ تدريبات المحاكاة لتعلم كيفية التصرف إن وقع زلزال، لكن فجأة، صارت الانفجارات أشيع من الهزات الأرضية، وهكذا

تغيرت أولوية تدريبات المحاكاة. كلَّما خرج أحد من منزله، اعترى بقية أفراد العائلة القلق، في انتظار المكالمة التي تؤكد وصوله بخير.

لم أخش الأشباح ولا الوحوش وأنا عمري أحدَ عشرَ عامًا. خشيت الشيطان قليلًا، لأن راهبات المدرسة ظللن يتحدثن عنه. خشيت الرب أيضًا لأنه يقدر -وفقًا لهن- على معرفة ما الذي تفعله طوال الوقت. لا يُمكن الوثوق فيمن يقدر على مراقبتك طوال الوقت. لكن أكثر ما خشيته في الواقع هي الدراجات النارية. كفاني أن أراها فحسب لأبدأ في الارتجاف، وللشعور في معدتي بهوّة لا يُمكن لأي شيء أن يملأها، ولأجد قلبي يدوي بقوة شديدة إلى درجة يبدو معها أن أحدًا داخله يناضل من أجل الخروج.

ذات سبت وضعَنا أبي أنا وإخوتي الأربعة في المقعد الخلفي للسيارة، وجلست أمي في الأمام. تلاصقنا جدًّا لأن التوائم الثلاثة كانوا قد كبروا كثيرًا. أبدينا احتجاجنا، لكن أبي ظلّ مُصرًّا على خوض الرحلة. تشاجرت كالعادة كي أجلس إلى جوار النافذة. لطالما فزت، لأن أفضل شيء في كوني الأنثى الوحيدة بين أربعة إخوة ذكور، هو أنّ أبي بذل كلّ ما في وسعه ليُرضيني. في بعض المرّات، ظل ينظر إليَّ كأن النظر إليَّ هو الشيء الوحيد الموجود في هذا العالم، فتهت في عينيه وابتسامته وإيماءاته، من دون أن أعرف أنني سأقضي بقية حياتي أستحضرها لكيلا أنساها.

سلكنا طريق الشمال وسط صخب كبير؛ غنينا وضحكنا وتشاجرنا وتعرضنا للتوبيخ، ثم عدنا إلى الغناء والضحك والشجار من جديد. مارسنا لعبة اختراع الكلمات بأحرف لوحات السيارات الموجودة أمامنا. ضغط أبي في مرّات متفرقة على دواسة الوقود بقوة ليستبق بقية العربات، فشعرنا أننا أبطال في أحد أفلام الحركة.

بعدئذٍ، لاحظت أن أبي يتفقد المرآة الأمامية وهو يتبادل نظراته مع أمي. انزلقت قطرات العرق من فوق جبينه وتشرّبتْها ياقة قميصه. حينذاك، التفتُّ برأسي ورأيت الدرّاجة النارية. ثمة رجلان فوقها، ومع كل منهما سلاح: تسلّح الراكب الأمامي بمسدس، والراكب الخلفي برشاش. لحقا بنا. نظرا إلينا وتناقشا فيما بينهما، ثم أسرع أبي السيارة، فباتا وراءنا.

ظللنا هكذا فترة طويلة، أو ربَّما أنها فترة قصيرة، لكنها بدت لي طويلة إلى درجة أنني فكرت فيما إذا كان الربُّ قد توقف عن مراقبتنا، وتساءلت من الذي سيعتني بسلاحفي. فكّرت في أنني لن أتمكّن من الدراسة لامتحان الرياضيات. فكّرت في أن أحدًا لن يتصل ليقول إننا وصلنا بخير؛ وأن أبي لن يقدم نُذُره، وأنني أنا وإخوتي لن نعرف من هو "سيدنا الراكع".

تمنّيت أنّني لم أتشاجر لأجلس إلى جوار النافذة، وبالمثل أن يكون زجاجها مصفحًّا وأن ينمو للسيارة جناحان وأن نصبح غير مرئيين، وأن يكون كلُّ هذا فيلمًا من أحد الأفلام التي يفوز فيها الأخيار دائمًا. كنّا قد شاهدنا في الأسبوع السابق فيلمًا

يُحقق فيه البطل كل رغباته عبر النظر إلى أعين الناس فحسب. وددتُ أن أجد نفسي جالسة أمام التلفاز لأرى هذه الرغبات تتحقق، لا أن أصيغ رغباتي الشخصية بنفسي.

تقدمت الدراجة النارية مجدَّدًا وباتت بمحاذاتنا. رأيت القاتلَين المأجورين ووشومهما. تدلّت مسبحة من رقبة كل منهما. تساءلت: هل يراقبهما الرب أيضًا؟ هل تستجيب العذراء لصلواتهما التي يدعوان فيها أن تتحلّى رمايتهما بالدقّة؟ فكرت في أن الرب يستقبل على الأرجح طلبات شديدة الخصوصية. استمرّا في نقاشهما، لكنني لم أتمكن من سماع ما يقولانه لأن هدير الدراجة النارية كان قويًّا جدًّا.

رفع الراكب الخلفي الرشاش وصوبه نحو أبي، لكن كلَّما ضغط أبي دواسة الوقود، صار تصويبه موجهًا نحوي. نظرت إلى إخوتي الذين تحجّروا كتماثيل من ملح. نظرت إلى أمي. ها هي ذي أنفاسها المحبوسة، وعيناها الخارجتان من محجريهما، ورغبتها في الفرار إلى نفس أماكن أبي المبتكرة التي أدركتُ في تلك اللحظة أنّه لا وجود لها. نظرت إلى أبي عبر المرآة الأمامية، ولم يبدُ التعبير المرسوم على فمه كأحد تعبيراته التي تُضحكنا. سرت رجفة باردة في ظهري من رؤيته المجرّدة.

رأيت عرق جبين القاتل المأجور من فرط قصر المسافة بيننا، وأسنانه العلوية وهي تعض على شفته السفلية ورجفة يده، بإصبعه الموضوعة فوق الزناد. انطبع وشم لصليب فوق

ساعده. رأيت الفراغ الأسود العميق الذي يخرج منه الرصاص. الفراغ الذي أراه دائمًا في أحلامي. إنه صغيرٌ جدًّا إلى درجة ظننت معها أن قدرته على ابتلاع الحياة أمرٌ مستحيلٌ، ورغم ذلك فقد كان موجودًا هناك وهو يحاول ابتلاع حياتنا.

نظر كلٌّ منّا إلى عينَي الآخر. نظر القاتل المأجور إليّ. نظرتُ أنا إليه. تبادلنا النظر لثانية بدت لي كأنّها حياة كاملة. لم تستقرّ عيناي من قبل في مكان بمثل هذه الظلمة، ومع ذلك كانت هاتان العينان موجودتين بثباتهما، وعجزهما، ورعبهما، ومعهما سبابة شخص مجهول حائر بين إطلاق النار وعدمه. حينما تسألني أستاذة العلوم بعدئذٍ ما هو السنتيمتر، سأقول لها: المسافة التي يجب على إصبع أن تقطعها كي تضغط على الزناد.

لم أعرف قطُّ لماذا لم يطلق النار. ربَّما ذكّرتُه بابنته لو أنّ له ابنة؛ أو بعائلته التي اجتمع كلُّ أفرادها -كما اعتادت أن تفعل عائلتنا- انتظارًا لمكالمة من ربِّ أسرتهم يقول فيها إنه وصل بخير. لا أعرف ما إذا كان تلقّى أجرته أم لا. هل عاقبوه لأنه لم يقم بعمله؟ هل احتاج إلى المال لسببٍ مهم؟ هل كان لديه شخص آخر ليقتله؟ شخص ليس معه خمسة أطفال في مقعد السيارة الخلفي؟ يروقني التفكير أحيانًا في أنّ الحياة هي هذا الفيلم الذي يكفي المرء أن يطلب رغبته وهو ينظر إلى عينَي شخص ما كي تتحقق.

تباطأت الدراجة النارية وبقيت في الخلف. ظهر القاتلان المأجوران من بعيد كنقطتين ضئيلتين إلى أن ابتلعهما الأسفلت في النهاية. في تلك الأثناء، تقدمنا نحو خيراردوتا وسط صمت لا يُطاق. تجنبنا النظر بعضنا إلى بعض، وأطبقنا شفاهنا، وكززنا على أسناننا. لم يفهم التوائم الثلاثة ما حدث للتو، لكن شيئًا ما في داخلهم أخبرهم أن الاستفسار بخصوصه ليس فكرة جيدة. تملكتني رغبة لا تُطاق في البكاء، لكنني أجبرت نفسي على التفكير في أي شيء آخر لكيلا أفعلها. لا أزال أتذكر مدى كثافة لُعابي وألم حلقي الذي منعني من ابتلاعه. آلمتني قدماي من شدة الضغط على أرضية السيارة بهما، وتساقط العرق فوق ظهري كشلال.

بعد بضع دقائق، عند المنعطف التالي، غير أبي رأيه ودار بالسيارة ومضى في طريق العودة نحو المنزل. من دون أغنيات أو ضحك أو مشاجرات أو توبيخ. لم يحلّ صمت مثل صمت ذلك اليوم في تلك السيارة. لم نتعرف إلى "سيدنا الراكع" ولم يُقدِّم أبي له نُذُره. ربَّما لهذا السبب قتلوه بعدئذٍ بأيام قليلة.

بينما ألعب بجهاز "نينتندو"، رنَّ الهاتف. كان يوم جمعة في شهر مايو ولم أذهب إلى المدرسة. تمثّلت خطتي في استغلال عدم وجود إخوتي لإنهاء لعبة "ماريو بروس". سألتْ امرأة موجودة على الجانب الآخر من الخط عن أمي. نظرتُ إلى الساعة. إنّها الواحدة ظهرًا. أجريتُ حساباتي وأخبرتها أنها لن تعود قبل ساعتين. أنهينا المكالمة وواصلت اللعب. لم تمر خمس دقائق أصلًا، وإذا بالهاتف يرنُّ مجدَّدًا. أجبت. تعرّفتُ على الصوت. إنها نفس المرأة التي اتصلت من قبل. سألتْ عن أمّي مجدَّدًا، فقلت لها نفس الشيء. مرّت خمس دقائق. نفس رنين الهاتف. نفس الصوت. نفس المرأة. أصرّت على التحدث مع أمي.

رنَّ الهاتف مجدَّدًا، لكنني لم أجبه. وددت أن أشتّت انتباهي باللعبة، إلّا أنّني لم أعد قادرة. حينما رنَّ مجدَّدًا، علمت أن شيئًا خطيرًا قد حدث. بدأت أرتجف، وتدحرجت قطرات العرق فوق ظهري. شعرتُ بجوف هائل ينفتح في معدتي، كأنني رأيت دراجة نارية أو فكّرت في الشيطان أو في الربّ وهو يراقب كل ما أفعله وكل ما أفكر فيه. ظللت أحدق إلى

الهاتف، لكنّني لم أرغب في الإجابة عليه. ظل يرنُّ ويرنُّ من دون توقف، كأنه لن يملَّ أبدًا.

حينئذٍ، وصلت كاتالينا وهي تركض. إنها العاملة التي ساعدتنا في أعمال البيت. لون وجهها كالليالي التي تخلو من القمر، ويداها ملآنتان بمسامير اللحم، وشفتاها رفيعتان. لم يرها أحد قطُّ وهي تبكي أو تضحك. نادرًا ما تحدثت أو أظهرت أسنانها البيضاء كالسُحب. اعتادت أن تنطق مقاطع أحادية تحتاج إلى جهد كبير لسماعها كلَّما اضطرت إلى الرد على أي سؤال تستعصي الإجابة عنه بالإشارات.

لطالما جلستْ إلى جوار فراشي، في الليالي التي أصابني فيها الخوف، فرافقتني بأغنياتها التي بدت أنينًا أكثر من كونها أغاني. كانت امرأة حزينة جدًّا. لقد صرخ في سكونٍ كلُّ خط ارتسم على وجهها بأمور لم تودّ قطُّ أن تحكيها لنا. لم يتمكن المرء من معرفة ما الذي سبق أن شعر به جسدها، أو ما الذي اضطرت عيناها إلى رؤيته كي تنطفئا وتصبحا في شدة العجز عن التعبير عن أي عاطفة، ومتجردتين بهذه الصورة من الرغبة الإنسانية في البحث عن السعادة. بدت كأنّها قد تنازلت عن هذا الأمر منذ فترة طويلة. كانت كاتالينا امرأة كئيبة حقًّا.

هاتان العينان اللتان بدت كلُّ واحدة منهما كهوّة، هما ما استجوبني. شرحت لهاتين العينين أنَّ أحدًا سأل عن أمي، وأن هذا الإصرار الكبير بدأ يبدو لي غريبًا. بقيت ثابتة بلا حراك إلى جوار الهاتف، من دون أن تنطق بكلمة، وهي تضرب بقدمها

اليمنى فوق الأرض بشكل متكرِّر. نبحت الكلاب من بعيد، وسُمع فوران الطنجرة التي تطبخ فيها الأرز. تظاهرتُ بالتركيز في اللعبة، رغم أنني في الواقع نظرت إليها بطرف عينيَّ وأنا أحاول التكهّن بأفكارها، فيما فعلت هي الأمر نفسه في محاولة لتخمين أفكاري.

كنا وحيدتين في البيت. غرقت كل واحدة منا في تأملاتها وصار انزعاج كلٍّ منّا ملموسًا في الهواء. لم تعرف لا هي ولا أنا ما الذي يجب علينا فعله أو قوله، أو إلى أين علينا أن ننظر. ضغطتُ بيديَّ على صدري لكيلا يخرج قلبي مني. دقَّ بشدّة إلى درجة خفتُ معها من أن تسمع دويَّه.

فكرت في فصل الهاتف. لم تعد لديَّ رغبة في سماع رناته مجدَّدًا. لم تعد لديَّ رغبة في إدراك أيِّ شيء. لم تعد لديَّ رغبة في أن يتصل أحدٌ آخر أبدًا. واصلت الكلاب نباحها وفاحت من المطبخ رائحة الأرز المحروق، لكن لم تتحرك واحدة منا لإطفاء الموقد. بدونا كصخرتين عند حافّة هاوية. من ناحيته، لم يتوقف جهاز "نينتندو" عن إصدار القرع الرتيب لـ"ماريو بروس". فجأة، أطفأتُ الجهاز برعونة، وظللنا غارقتين في صمت سمعنا فيه دقات قلبينا تدوي داخل صدرينا وهي تتزامن في إيقاع مُقلق. حين رنَّ الهاتف من جديد، قفزنا نحن الاثنتين.

أجابت كاتالينا. أدركتُ أنّها نفس المرأة. بدا الأمر في هذه المرَّة كأنها تقدم معلومات بتفاصيل أكثر. "وكيف حالُه؟". هذا فقط ما سألته كاتالينا. ها هما كلمتان تتحولّان إلى سؤال.

كلمتان ستصنع الإجابة عنهما الفارق بين حياتنا السابقة والحياة التي تنتظرنا. كلمتان. كلمتان ملعونتان لن أتمكن بعدئذٍ أبدًا من إخراجهما من رأسي. "وكيف حاله؟". هاتان الكلمتان اللتان سألتا عن شيء لا نود أن نعرفه، لكن السؤال نفسه كان مطلوبًا. حصلت الكلمتان على جواب، مع ذلك أبت أن تقوله لي.

حينذاك، رأيت وجهها الداكن -الذي رأيته مرّات كثيرة في حياتي- يشحب ويغدو كورقة بيضاء، وأبصرت عينيها الحزينتين وهما تزدادان حزنًا. رأيت شفتيها الرفيعتين ترتعشان وحنجرتها تتحرك في محاولة لفك تلك العقدة التي منعتها من ابتلاع لعابها. بعدئذٍ، لم أر شيئًا آخر لأنها استدارت وبقيت بظهرها أمامي. لم تودّ أن أرى وجهها، لم أره، لكنني علمت أنّ كاتالينا تبكي لأول مرَّة.

لم أتمكن قطُّ من إنهاء "ماريو بروس". لم ألعب مجدَّدًا منذ ذلك اليوم. لن تصبح حياتي سهلة جدًّا كي أقضي وقتي وأنا أجمع العملات وأسحق السلاحف وأبحث عن الفطر. أدركت في هذه اللحظة أيضًا أن العالم الحقيقي ليس فيه ثلاث محاولات للحياة كألعاب الفيديو. توجد حياة واحدة فقط، وحين تخسرها، تضيع إلى الأبد.

أصبحتُ غير مرئية بعد مجرد مكالمة، حدث هذا تحديدًا بعد أن أجابت كاتالينا على الهاتف واستدارت كي تتجنب أن أراها وهي تبكي. إنها اللحظة المعنيّة. أتذكّرها جيدًا؛ فأن تصبح غير مرئي وأن ترى كاتالينا تبكي أمران لا يحدثان كل يوم. سألتها عما حدث، لكنها لم تنظر إليّ. هززتها وأحطت فخذها بذراعيَّ وضممتها بقوة كبيرة، إلى درجة أنني شعرت ببروزات عظامها تلامس عظامي. صرختُ لها قائلة شيئًا لا أتذكره، لكنها لم تنظر إليَّ. كان وجهها شاحبًا وممتقعًا. أثارت رؤيتها الخوف. بدأت بعدئذٍ تُحلِّق في كل أرجاء المنزل بخطوات هذيانية وفوضوية. لاحقتها وأنا أطالبها بتفسيرات: بالصراخ أوّلًا، وبالدموع لاحقًا، لكنها لم تسمعني. لاحقتها عبر الأروقة وجذبتها من تنورة زيِّ عملها الزرقاء، إلّا أنها ظلت تسير وتسير من دون أن تصل إلى أي مكان.

لما أنهكها المشي، وصلت وهي تتعثر إلى غرفة ملابس أبويَّ، حيث بعثرت كل القطع بحثًا عن البدلات الداكنة الأنيقة التي اعتاد بابا أن يستخدمها. جلستُ في أحد الأركان على

أرضية غرفة الملابس الرطبة القاتمة. بكيتُ من دون أن أعرف السبب أصلًا. لم تنظر إليّ، أما أنا فلم أتمكن من إبعاد عينيَّ عنها.

لاحظتُ بلادة تحركاتها ورجفة يديها والصعوبة التي ابتلعت بها لعابها. سألتُها ما الهدف من وراء البدلة. لقد ودّعني أبي قبل ذهابه إلى المكتب وبدا لي أن ملبسه حسنٌ جدًّا. لا بدّ أن الأمر يتعلّق بربطة عنقه التي اتسخت غالبًا من معجون الأسنان. لو أن الأمر يتعلق بربطة العنق، فعلينا أن نأخذ له واحدة نظيفة، وليس بدلة كاملة. "لماذا بدلة كاملة؟". كررت هذا السؤال مرَّة تلو الأخرى، لكنها لم تجبني. واصلَت البحث بين جبال الملابس، وهي عاجزة عن اختيار البدلة المناسبة. اختارت في النهاية واحدة سوداء. أدخلَتها في حقيبة ثم ربطتها بعقدتين.

سمعتُ بوق سيارة. لما أطللتُ من النافذة رأيت رجلين أعرفهما قليلًا. إنهما ابنا عمومة بعيدان. لم أتذكر اسميهما أصلًا. وددت أن أسألهما لماذا يبكيان، لكن لما بت مستعدة لسؤالهما، أشاحا ببصريهما، فاضطررت إلى قرص نفسي لأتحقق من أنني ما زلت موجودة.

تبادلا بعض الكلمات بصوت معتدل مع كاتالينا. قالت لي من دون أن تنظر إليَّ أن أضع ملابسي في حقيبة ظهري، فعليَّ أن أبيت الليلة في بيت جدتي. لم أتيقن مما يجب عليَّ أخذه، لهذا

وضعت قليلًا من كل شيء. وضعت سترتي الخضراء المفضّلة، وفستانًا أسود لم يرقني تقريبًا، ووشاحًا رماديًّا وقميصًا مطبوعًا بالورود. بينما أُغلق حقيبة الظهر، رأيت تمثال المسيح الخشبي الذي قدموه لي هدية في مناولتي الأولى والمعلق على ظهر فراشي. علقته على رقبتي، داخل القميص، لكيلا يُلاحظه أحد. توقفت قبل خروجي من غرفتي أمام النتيجة: إنه السابع عشر من مايو. تكهنت بأن هذا سيصبح يومًا لن يُنسى، لهذا حدّدته بعلامة الضرب.

نظرت عبر النافذة، فوجدت أن الرجلين لا يزالان ينتظرانني في السيارة. خرجت ببطء، كمن لا يرغب في الوصول. سلمتني كاتالينا الحقيبة ومعها البدلة ووضعتني في المقعد الخلفي للسيارة. لم تودّعني. لم تقل شيئًا. ظلت أسيرة لهذا التوتر المقلق الذي انغمَست فيه منذ أجابت على الهاتف. لم أعرف وأنا داخل السيارة مع هذين الرجلين المجهولين، مَن مِنّا شعر أكثر بالانزعاج: هما معي، أم أنا معهما. لم يقولا كلمة واحدة طوال الطريق. كتما مشاعرهما إلى درجة ظننت معها أنهما سيتفجران إلى أشلاء في أي وقت.

ظهرت المدينة وهي مشوّشة على الجانب الآخر من النافذة. لم أعرف ما إذا ارتبط الأمر بسرعة السيارة أم بالدموع التي حبستها عيناي. بدا الأمر كأن ثمّة بحرًا كاملًا يسكن فيهما ويفيض في كل فترة قبل أن يمتلئ من جديد. حرّكت يدي داخل صدري بحثًا عن الصليب الخشبي الذي علقته. ضغطتُ

عليه بقوة حتى آلمتني أصابعي وأنا أراقب المشهد وهو يزداد ضبابية أمامي كأنه يُرسم بضربات فرشاة خرقاء. بدا الأمر كأن العالم قد انمحى بضربة فرشاة واحدة، أو كأن خلقه لا يزال يبدأ بالكاد. وسط كل هذا، استمرّت الرياح في تعقيد شعري وتشرب دموعي.

تركت الصليب جانبًا في بعض اللحظات لأحتضن حقيبة البدلة وأتنفس العبير الذي تسلل منها على الرغم من العقدتين. يُولِّد عبير الآباء سكينة لا تُوصف. حين يستشعر المرء رائحة أبيه، تبدو المسألة كأن كل الأمور ستنتهي على ما يُرام، وأنه ما من شيء سيئ قد يحدث. تخيلت أنني في أمان معهما. ضيقت عينيَّ في محاولة لاحتجاز تخيلاتي. لكن الواقع أعادني بضربته واكتسح تيار راجف كلّ جسدي بعنف.

أمسكت الصليب مرَّة أخرى وبدأت أصلي. اعتادت الراهبات في المدرسة أن يقلن لنا إن المواساة موجودة دائمًا في الصلاة، لكنني صلّيت طوال الطريق ولم أعثر عليها في أي مكان. قالوا أيضًا إنه يراقبنا دائمًا، لكن إحساسي بالهجران في تلك اللحظة تخطّى الوحدة التي كنت سأشعر بها، لو أنني آخر ساكنة للعالم. فكرت في أنني بتُّ غير مرئية للرب أيضًا.

وصلتُ إلى بيت جدتي في تلك الساعة التي يبقى فيها بعض الضوء، فيظن المرء أن الليل لم يحلّ، لكنه في نفس الوقت ضوء قليل جدًّا، فيعرف المرء بسببه أن النهار لم يعد نهارًا. ازدحم المربّع السكني كلُّه بسيارات مصفوفة على جانبَي الشارع.

تعرفتُ على سيارة أمّي فورًا. كانت بقية السيارات لأشخاص معروفين. حفظت لوحاتها في ذاكرتي. رأيت أطيافًا تنظر عبر النوافذ والشرفات وكل الأماكن، لكن كلّما استجوبتها بعينيّ، اختفت أو نظرت إلى جانب آخر.

وجب على المرء أن يصعد ٢٤ درجة ليدخل إلى هذا البيت العملاق الواقع في الشارع العاشر. وقفتُ أمامها هناك. اعتدت أن أصعد وأنزل هذه الدرجات كل يوم تقريبًا بسعادة صاخبة: على قدم واحدة، على أطرافي الأربعة، وأنا واقفة على يديّ، بدرجتين في المرَّة الواحدة أو بثلاث، لكنني في تلك اللحظة بدوت كشجرة بلوط مزروعة في الأرض بجذور عميقة ومتشابكة.

وددت أن أصعد وأن أبحث عن أمي كي أعانقها وأقول لها إنني منهكة من كوني غير مرئية، وإن الكل يتجنبون النظر إليَّ لكيلا يضطروا إلى الرد على أسئلتي. صعدت ببطء، مثل شخص لا يرغب في الوصول إلى النهاية، وأنا أتمنّى أن تمتد درجات السلم إلى اللا نهائية، لكن هذه الأمور تحدث في الأفلام فقط. احتجت إلى العثور على أعين تنظر إليَّ كي أتمكن من تمنّي أمنية، مثل هذا الفيلم الذي شاهدته مؤخرًا. كانت أمنيتي أن أكف عن كوني غير مرئية.

وصلت إلى القمة بقدميَّ الأسمنتيتين. أمسكت حقيبة البدلة بقوة شديدة إلى درجة أنها آلمت أصابعي. اكتست أصابعي نفسها بالبياض والرضوض من فرط ضغطي عليها.

دخلت البيت الملآن بالناس. لم أر قطُّ حزنًا مجتمعًا مثل هذا. تجوّلت وأنا تائهة ومغمومة عبر هذه الأروقة التي سرت فيها مرّات كثيرة، فأفسح الناس لي الطريق كي أمرّ. شاهدت التوائم الثلاثة وهم يلعبون في إحدى الغرف، وتمنّيت أن أصبح صغيرة جدًّا مثلهم لكيلا أضطر إلى فهم ما يحدث.

عبرت فناء الزهور المزدوجة وأنا أبحث عن أمّي بين سيقان كثيرة: سيقان معروفة ومجهولة. سيقان تسر الناظرين وأخرى بائسة. سيقان قريبة وبعيدة. لقد زرعها شيء ما هنا، فتلاصقت وتصلبت كأشجار في غابة. أيًّا كان ما حدث فهو أكثر تدميرًا من إعصار قادر على جرِّ كلِّ ما يجتازه بحدة دورانه، قبل غربلته بغضب وإعادته إلى الأرض حطامًا منثورًا. وددت أن أهرب وأن أغلق الباب على نفسي في إحدى غرف البيت المتنوعة، لكنها امتلأت جميعًا بوجوه كئيبة دامعة.

لما رأيت ساقَي أمي البيضاوين المليئتين بالنمش، تشبثت بهما بقوة من دون أن أعرف أنّهما حافة هاوية سينبغي عليَّ أن أنظر إلى أعماقها. لم أعرف أنني مع إفلاتي لهما لن أصبح أبدًا نفس الشخص الذي كنته. فجأة، نظرَت إليَّ بأسف كلُّ الأعين التي تجنبتني. سمعتُ همسات. سمعتُ أنينًا. سمعتُ قلبي نفسه وهو يكافح للخروج من صدري.

قرفصَت أمي كي تُصبح في طولي ونظرَت إلى عينيَّ لتكسر تعويذة انعدام الرؤية. نظرتُ إلى عينيها وعلمتُ أن الإعصار

قد التهمها هي الأخرى، وأنه قد أعادها محطمة إلى ألف قطعة، وأن جمعها وإصلاحها سيستغرق وقتًا. هكذا، وكلٌّ منا تنظر إلى الأخرى، قالت لي إن بابا قد ذهب إلى السماء.

في ذلك المساء، سقط جزء منّي في هوة. مات كي يتمكن من مرافقة أبي في هذه الرحلة التي لا عودة منها. أجهل ما الذي ارتدته روحه كي تدخل السماء، لكنني على الأقل أعلم أن جسده قد دُفن إلى جوار شجرة مانجو، وأنه ارتدى بدلة سوداء أنيقة جدًّا.

لم أتمكن طيلة سنوات كثيرة من التوقف عن التفكير في المرَّة الأخيرة التي رأيت فيها وجه أبي. لا أعرف لماذا أتذكّره بمثل هذه الدقة، خاصّة وأنني حين نظرت إليه في ذلك الصباح، فعلت الأمر من دون أن أدرك أنني لن أراه بعدئذٍ أبدًا. لا يُمكن معرفة الأمور إلّا بعد حدوثها. لم يكن وجهًا وداعيًّا بالمعنى الحرفي للكلمة، ومع ذلك فهو الوجه الذي ظل باقيًا في ذهني.

حين يموت شخص ما، يلجأ المرء إلى التشبث بالذكريات وجمع شظاياها. إنه صراع مستمر ضد النسيان ويعرف الكل أنه لا توجد طريقة للفوز به، إذ يمضي الزمن كعاصفة هوجاء، ويدكُّ كلَّ ما ليس راسخًا، بل إن أرسخ الأشياء أصلًا تغدو مهدَّدة بالتلاشي. أعدتُ بناء الوجه الأخير لأبي مرّات كثيرة جدًّا، إلى درجة أنني شككت أحيانًا في أنه مجرد ابتكار داخل رأسي كي يُصبح لديَّ شخص أودّعه، فأي رحيل لا يتضمن وداعًا هو رحيل منقوص.

إنه أمر مثير للفضول، لأنني لطالما تذكرت، في أي وداع شهدته في حياتي المكان والأجواء المحيطة؛ ما قلته وما قيل لي؛ ما فكرت فيه وأنا في عناقي الأخير؛ رجفة الأجساد، أو

لون السماء، والجهد المبذول لكيلا ينكسر صوتي، لأنه حين ينكسر صوت المرء، ينكسر كل شيء آخر معه. الدموع أيضًا، إن وجدت.

لكنني لا أتذكر أبدًا الوجه الأخير لمن أودعه.

أرى مُجمل الشخص الآخر؛ إجماليَّ مكوناته فقط، إلّا أنني مهما اجتهدت، لا يمكنني أن أتذكر بالتفصيل التعبير المستقر فوق ذلك الوجه، أو الخطوط الدقيقة التي منحته شكلَه، أو منحنيات شفتيه. أن يكون الوداع منذ دقائق أو منذ عقد ليس أمرًا مهمًّا. ثمة أمور يصعب تذكرها. التعبير الأخير الذي يحتضنه وجه المرء شيء منها. مع ذلك، لا أزال أتذكر كيف سطع وجه أبي قبل ساعات من قتله.

حدث الأمر في يوم الجمعة الموافق السابع عشر من مايو من عام ١٩٩١. لم يجب عليَّ الذهاب إلى المدرسة، ولهذا فرحت لأن جهاز "نينتندو" سيصبح لي وحدي. أيقظني الإعصار الذي يجتاح بيتنا في كل صباح: مناقشة التوائم الثلاثة حول من منهم يخصّه هذا الزي أو ذاك، أو شجارهم بخصوص اختلاط الأحذية مرَّة أخرى، مع رائحة الـ"آريبا"* المحمَّصة، وصوت العصارة وهي تصنع عصير البرتقال، وماما وهي ترفرف من قفص إلى قفص لتضع التين للطيور المحاكية وعشب الخرفار لعصافير الكناري، وسط صياح الببغاوات وهي تطالب بقطع الموز، وغضب كاتالينا لأن الشوكولاتة

(3) * خبز مسطح يُصنع من عجين الذرة. (المترجم).

ستبرد والـ"آريبا" ستنشف.

تمثّلت خطتي في اللعب طوال اليوم لإنهاء "ماريو بروس". كان عدم اضطراري إلى تشارك جهاز الـ"نينتندو" مع إخوتي رفاهية لا تحدث إلّا كلّ فترة طويلة. ابتسمت وأنا راقدة وناعسة في فراشي بسبب حظّي الجيّد. سيكون يومًا لا يُنسى.

لما تخطّت الساعة السابعة، أصبحت الكتيبة كلُّها داخلَ السيارة بجوارب غير متناسقة وأسنان لم تُغسل بعد وأطقم مدرسية مُتبادلة، والـ"آريبا" المتيبسة بين أيديهم والزبدة التي تسيل على أذرُعِهم نحو الأسفل. لم يتوقف أحد التوائم عن ضرب بوق السيارة. إنه بابلو على الأرجح، فهو أكثرهم نفادًا للصبر. مرَّ أبي سريعًا عبر الرواق في الطريق إلى المرأب. سمعت إيقاع حذائه. كاد أن يركض. مرّ أمام بابي وتوقّف. فتحه بحذر وبقي لينظر إليَّ وأنا متكورة بين الأغطية: مجرد كرة ضئيلة تشعر بالأمان وسط فراشها المريح. استمرّ صوت بوق السيارة. الأمر مؤكّد: سيكون يومًا آخر يصلون فيه متأخرين إلى المدرسة. ما من طريقة لتجنّب الأمر. لطالما وصلنا بعد رنّ الجرس بوقت طويل. حصلنا جميعًا على إنذارات مدرسية.

على الرغم من أنّ صخب بوق السيارة بدا ملحًّا، ظل أبي واقفًا بضع ثوان عند باب غرفتي. نظر إليَّ، فنظرت إليه. لم يقل شيئًا وأنا أيضًا. عرف كلانا أنه ليس أمرًا ضروريًّا. لطالما قدرنا على تفهم بعضنا بعضًا من دون كلمات، ومن دون كلمات

غيَّر ملامح وجهه، فبدا شبيهًا بنجوم علامات الترقيم، بعينيه الواسعتين اللامعتين، وحاجبيه المقوسين وأنفه المتقلص. استمر أخي في إزعاجنا ببوق السيارة. ضحكت بصوت مرتفع لأنني عشقت حركات وجهه. ضحكت لأنني لم أعلم أنني لن أراها مرَّة أخرى. أخفيت رأسي تحت الأغطية وأنا أضحك وبات كلّ شيء مظلمًا. كنت مجرد كرة مبتسمة آمنة تفكر في أنه ما من شيء سيئ قد يحدث لها أبدًا.

سيموت أبي في ظرف ساعات، لكنني لم أعرف الأمر. لم يعرفه هو أيضًا. الوحيد الذي عرف الأمر في تلك الساعة هو القاتل المأجور، الذي صلّى بالطبع للعذراء في مكان ما في المدينة لتمنّ عليه برماية دقيقة، ولكيلا يوجد أطفال في الجوار، ولكيلا يذهب هذه المرَّة لقتل الشخص الخطأ. ستُلبَّى كل طلباته.

بينما يحدث كلّ هذا، بقيت فترة معتبرة فوق الفراش وأنا أتذكر التعبير الذي رسمه أبي على وجهه. بعدئذٍ، استيقظت وذهبت لألعب بجهاز الـ"نينتندو" وكلّي يقين بأنني سأحظى بيوم لا يُنسى، وحدث هذا فعلًا.

تضمّن الصباح التالي لمقتله لحظة من السعادة. إنها لحظة قوامها الثواني العشرة القليلة التي مرّت حين فتحت عينيَّ ونظرت حولي وأنا أحاول معرفة لِم استيقظتُ في بيت جدتي. لم أتذكر أيضًا السبب وراء الثقل الكبير الموجود في رأسي ولماذا كزرت على أسناني. شعرت وأنا أحاول أن أتحرك بوخز في رقبتي وظهري. طلبَت أمي مني في المساء السابق أن أشير بإصبعي إلى النقطة المحددة التي تؤلمني، لكنني عجزت عن العثور على هذا المكان الملتبس الذي تسكنه الأشياء التي لا يُمكن الإشارة إليها.

إنه صباح مظلم على غير العادة. بدا الأمر كأنني أرى زجاج النافذة مُغبشًا بصورة لم أرها من قبل، وهذا لأن بيت جدتي كان ضخمًا جدًّا وتملؤه الأفنية والشرفات التي ينساب منها الهواء المنعش. وجدت نفسي غارقة في ضباب كثيف جدًّا إلى درجة كدت معها أن أقبض عليه بيديّ. حين فركت عينيّ، أدركت أن الضباب موجود في نظرتي.

لطالما كان بيت الجدة حفلًا مستمرًّا والكل مدعوّون إليه، لكن الصمت فحسب هو ما ساده في ذلك الصباح. اعتاد

الناس أن يتجولوا في أحيان كثيرة حول المطبخ، لمعرفة ما تُحضِّره أو لمحاولة سرقة أقراص الحلوى وأرغفة الخبز حين تدخل إلى خزانة الطعام بحثًا عن شيء. على الرغم من ضخامة غرفة الطعام، احتجنا دائمًا إلى توفير أماكن إضافية، إذ ظهر الضيوف من دون سابق إنذار. اعتدنا أن نتناول الطعام ونحن نسمع قصصًا ونضحك وأن نقول للجدة إنّ هذه أفضل فاصولياء تطهوها لنا، أو أن نمدح قرمشة قطع الـ"تشيتشارون"* التي تقليها. بينما يأكل البالغون الحلوى مع العشاء، سرحنا ومرحنا نحن الأطفال في الأروقة الطويلة كطرق سريعة، وصعدنا ونزلنا الأدوار الأربعة التي ربطت البيت الكبير من بدايته إلى نهايته، فانتقلنا من ظلام المرأب إلى ضياء السطح؛ من العناكب والوطاويط إلى الأرانب والمزروعات المائية الخاصة بأخوالي؛ من الخوف إلى الانتشاء؛ من العفن إلى الهواء المنعش الذي يهب فوق البلاط المتآكل. وجد بيت جدتي لنفسه متّسعًا في العالم ووجد العالم كله لنفسه متّسعًا في بيت جدتي. هناك، لم ينقص أو يزد شيء. كنّا سعداء. كنّا كاملين.

ما أيقظني في ذلك الصباح هو جرس عربة القمامة. إنه صوت غريب عليَّ لأننا عشنا في مزرعة لم يأت إليها أحد لجمع المخلفات. لما سمعت رنينه، علمت فورًا أنني لم أنم في فراشي. توتّرت مع الجرس. راودني ذلك الإحساس المقلق

(4) * مقرمشات مقلية تصنع من بطن لحم الخنزير، لكن قد تصنع أيضًا من الدجاج واللحم البقري. (المترجم).

بأن شيئًا ما ينقصني، لكنني عجزت طيلة عشر ثوان عن تذكره. ربَّما ليس الجرس هو ما جعلني هكذا. ربَّما هو الصمت غير المعتاد في تلك الساعة. لم أسمع ناسًا يتناقشون في الشرفات ولا أصوت أدوات المائدة والأطباق في غرفة الطعام. لم يكن ثمة أطفال يركضون ويتواثبون فوق الأسرَّة. لم تنبثق من غرف أخوالي قهقهتهم أو الوحوش التي ابتكروها لإخافتنا. كان نهارًا كئيبًا لم يظهر فيه انعكاس الشمس فوق النوافذ.

حتى المطبخ نفسه غرق في الصمت: الطناجر في مكانها، الراديو مطفأ. لا بد أن نفس القهوة الباردة المرَّة الفائضة من اليوم السابق ظلت موجودة في الإبريق. لا وجود للخبز الساخن داخل الفرن، ولا الـ"آريبا" فوق المشواة لتسويتها. لم تُرفرف الجدة في كل الأنحاء ومن هذا الجانب إلى ذاك. رنَّ الهاتف كلَّما مر بعض الوقت، لكن أحدًا لم يُجبه. لم أفهم السبب. لطالما تشاجر أخوالي للردّ عليه، أملًا في أن تكون المتصلة خليلة أحدهم. بدا الأمر كأن البيت صار مسكونًا بأطياف لا تتجرأ على الخروج من غرفها، فبقيتُ متكورة هناك، وأنا أحاول تذكر لِم باتت كل الأمور مختلفة، ولِم التحفت بغطاء آخر ولِم أنا موجودة في فراش آخر. تجمدت قدماي وأنا لا أزال مرتدية نفس ملابس اليوم السابق. لم أتذكر من وضعني في الفراش ليلًا، بعد أن جعلني أتناول حبة منوّمة جعلت جفوني ثقيلة كالحجارة. من المحتمل أيضًا ألّا أكون قد غسلت أسناني؛ أنا التي لم أنم قطّ في حياتي من دون أن أغسلها، لأن أمي كانت

مهووسة بهذا الأمر، ولما بات عمري أحد عشر عامًا أصابتني بعدوى الهوس ذاته. سمعت، وأنا غارقة في قلقي هذا وبينما أمرر لساني فوق سطح أسناني، أنينًا في غرفة الجدة. جعلني هذا الأنين أتذكر -وكأنه ومضة داخل عقلي- أن أبي قد قُتل في اليوم السابق.

ضعضعت الفكرة كلَّ ما في داخلي مجدَّدًا، فتلاشت لحظة وعيي السعيدة الضئيلة. سمعت أمي وهي تقول لي مرَّة أخرى إن بابا ذهب إلى السماء، من دون أن تقدم تفسيرات كثيرة حول كيف لرجل خرج صباحًا ليعمل أن ينتهي به المطاف وهو يذهب إلى السماء. قالت شيئًا ما عن اعتداء. أشارت إلى قاتل مأجور؛ إلى طلقة وشريان انساب منه الدم. عجزتُ عن تذكر الأحداث بدقّة، لكنني تذكرت فقط تعبير وجه أمي وهي تحكيها وتُنحّي بعض التفاصيل جانبًا، ومعها كل الأسباب التي أدت إلى حدوث الاغتيال. ما زلت في انتظار هذه الأسباب. لم يعرفها أحد يقينًا قطّ. بدأت أتضاءل إلى أصغر حجم لي: ضممت ركبتيَّ إلى صدري، وأغمضت عينيّ، وشددت قبضتَي يديّ. وددت أن أختفي. اتقد وجهي كما حدث في عطلات الساحل كلَّما خرجت من البحر وجلدي مغطى بالملح. كانت الوسادة رطبة وبقيت بلا حراك، مع أن عنف تشنجاتي ظل ينفضني بين الحين والآخر. وددت كثيرًا أن أعود إلى هذه الثواني العشر اللا واعية وأن أوقف الزمن. عشر ثوانٍ. عشر ثوانٍ فقط ستتكرر كلَّما استيقظت في الأيام اللاحقة للدفن.

يتأخر المرء في الاعتياد على فكرة موت أبيه، لكنه ينجح في النهاية حين يأتي اليوم الذي يفتح فيه عينيه، ولا يجد يقينًا سوى غيابه.

تتسع الثواني العشر للتفكير في أمور كثيرة ونسيان أشياء كثيرة أيضًا. لطالما عشقت ثواني اللا وعي العشر هذه لأن أبي عاش فيها، ولم أطق بقية اليوم. وددت فقط أن يأتي الليل كي أنام وأصحو مرَّة أخرى في الصباح التالي مع أبي الذي سيستغرق وجوده عشر ثوان. إنها عشر ثوان لا يُمكن أن تمتد، أو أن توضع في الكومود، أو أن تتجمد أو أن يقبض عليها المرء بيده. عشر ثوان هي كل شيء ولا شيء. هذا ما كان عليه أبي.

اعتدت على رؤية مكانه في المرأب خاويًا على الدوام، كحال مقعده في طاولة غرفة الطعام. خاوٍ هو جانبه في الفراش. خاوٍ هو مكانه على الأريكة التي جلسنا عليها لمشاهدة التلفاز. في البداية، لم يقدر أحد في البيت على شغل هذه الأماكن. فضَّل من يصل متأخرًا لمشاهدة مسلسل الثامنة أن يجلس على الأرض على أن يحتلّ مكان بابا. بات اسمه لا يُذكر، وأهدينا ملابسه إلى الغير، وتوقف أصدقاؤه عن الاتصال بأمّي للسؤال عن أحوالنا. لم تعد عائلته تزورنا. استمرّ مكتب المحاماة في العمل من دونه. بعنا سيارته. وزّعنا الكنوز الصغيرة التي عثرنا عليها في دُرجه. كان نصيبي فراء أرنب ومفكرة ملآنة بعبارات وأفكار مكتوبة بخط يده.

قضيت الليل كلَّه في القراءة، إذ شق عليَّ النوم لأنني لم يعد لديَّ شخص أناديه كلَّما شعرت بالفزع. حلمت كثيرًا بأن ماما هي الأخرى تموت، فاستيقظت وأنا مرعوبة إلى درجة أنني لطالما اجتزت الأروقة اللا نهائية التي ترصدتني فيها ظلال السراخس(*) وأنا أركض كي أذهب إلى غرفتها وأتحقّق من أنها حيّة. تحولت فكرة موتها إلى هوس. كلَّما تأخرَت دقيقة واحدة عن موعد وصولها المفترض إلى المنزل أو لأخذي من المدرسة، وجدت نفسي أتخيل كلَّ ما يُمكن أن يكون قد حدث في تلك اللحظة. لطالما عانت أمي في تلك الأيام من نوبات صداع أجبرتها على الانعزال في غرفتها بعيدًا عن أي صوت أو مصدرٍ للضوء. اعتدت أن أتكوّر إلى جوارها بحجة الاعتناء بها، لكن ما وددته فعلًا هو الاطمئنان تمامًا إلى أنها تتنفس. ما من صوت كان أفضل من الهواء وهو يدخل ويخرج من فمها.

لا يقبل المرء الغياب، لكنه يتقبله في النهاية. مع مرور الوقت، تحول أبي إلى طيف، إلى شبح، إلى اسم، ولاحقًا إلى مجرد ذكرى. لم يعد منذ فترة يسكن هذه الثواني العشر. نسيت نبرة صوته منذ زمن طويل. يزداد البُعد بيننا بمرور الوقت ولا يمكنني أن أفعل شيئًا لتقصير المسافة. إنه بعيد جدًّا اليوم إلى درجة أنني أتساءل أحيانًا: هل كان موجودًا حقًّا؟

لا أتجرأ على معانقته إن حلمت به، فكلما مر الوقت،

(5) * نوع من النباتات. (المترجم).

ازدادت غُربتنا. أحيانًا، لا يتعرف عليَّ، أو أنني أعجز عن التيقن مما إذا كان هو أم لا. لو أنني أتذكر وجهه، فهذا لأنني أنظر إلى صوره بين الحين والآخر لمراجعة ملامحه. لا يزال شابًّا. سيظل هكذا إلى الأبد. كان في مثل عمري حين مات. يتملكني الفزع حين أفكر في أنني سأصبح قريبًا أكبر منه. توشك هذه الفكرة على أن تغدو هوسًا. سأقول إنه تمكن من الفرار من ذاكرتي في تلك السنوات لأنني كافحت لنسيانه، إلى درجة أنني صرت الآن أبذل جهدًا كبيرًا، حين أصحو، لتذكر أنه كان حيًّا ذات مرَّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا أعرف كم من وقت بقيت واقفة وأنا أنظر إلى الملابس. جسدي العاري. شعري المبلل. البِركة التي تشكلت من تراكم نقاط الماء فوق الأرضية. تركَت أمي على الفراش هذا الرداء الأسود الذي كرهتُه كثيرًا، لكنني أردت أن أرتدي السترة الخضراء الزمردية المصنوعة من قماش الساتان. أصرت أمي على الفستان، فقلت لها إنني لا أحب الأسود. أمّا بالنسبة إلى التوائم الثلاثة فبدا مظهرهم واحدًا بقمصانهم البيضاء ذوات الأزرار وبنطلوناتهم الداكنة. لم يرتد توماس، "الأحمر"*، لأول مرَّة في حياته، ملابس بلون شعره. اختار سانتي بدلة ذات تفصيلة أنيقة، ربَّما ليُثبت فقط أنه الأكبر. خرجنا هكذا إلى سهرة العزاء على أبينا. كنّا أحزن عائلة في العالم وأثرنا الشفقة.

لمّا فاضت الكنيسة المزدحمة بالناس، وقف بقيّتُهم على الرصيف ومن بعده الشارع. لدى وصولنا، نظر إلينا الجميع. وددت التفكير في أن الأمر مرتبط بسترتي التي برزت بلونها الأخضر اللامع وسط كلّ هذا السواد. أتذكر أن أذرعًا كثيرة

(6) * سيدرك القارئ مع تقدمه في قراءة العمل لِم لجأتُ إلى استخدام كلمة "الأحمر" وليس "الأصهب" في هذا الوصف. (المترجم).

حاولت أن تضمّني، لكنني لم أرغب في أن يلمسني أحد، فقماش الساتان -لو أن المسألة غير معروفة- حسّاس جدًّا.

تأجل الدفن إلى اليوم التالي لأن القداس تأخر. وجدت نفسي مرَّة أخرى أتفقّد ملابسي مع نفس البركة. أصرت أمي على الرداء الأسود. قالت لي إنه يليق بي بشكل أفضل. في الواقع، قالت إنه الأنسب، لكنني اخترت قميصًا مطبوعًا بالزهور الملونة. ذهبت بشخصيتي. حاولَتْ في اللحظة الأخيرة أن تجعلني أرتدي وشاحًا رماديًّا، لكنني أخبرتها أن الحرارة ستكون مرتفعة بلا شكّ، لو أنها لم تر مدى جمال الجو.

لا أتذكر من المقبرة سوى كميّة الزهور. بدا السير من دون دهسها صعبًا. تماهى قميصي مع هذه الألوان ووددت أن أغدو خفية وسطها. لم أودّ أن أنظر إلى وجه أبي الهامد، لأنني تذكرت جيدًا وجهه الأخير وأردت ألّا ينطمس.

لما ابتلع جوف الأرض التابوت، بدأت أمطار زهور القرنفل والفلامينجو والزنبق. أمطار الورود وزهور البط والجربارة. أمطار زهور المارجريتا وزنبق الوادي وسيف الغراب التي اختلطت فورًا بالتراب الأسود. وددت أن أصبح زهرة كي أرافق أبي في هذا الجوف القاتم والرطب. يُفكر المرء في أمور غريبة جدًّا في لحظات مثل هذه.

ما حدث في اليوم التالي أشبه بتنفس الصعداء: قررت أمي

أن تُرسلنا إلى المدرسة. هكذا، لم تتشكل بركة فوق الأرضية لأنني لم أضطر إلى اختيار ملابسي، إذ ارتديت فقط زيّي المدرسي اليومي. الزي الأبيض ذا الأزرار الحمراء، لطالما كرهته، لكنه في تلك اللحظة بدا لي جميلًا، إذ جعلني أشعر أنني مثل بقية البنات اللاتي لديهنّ عائلات كاملة وسعيدة.

اسمها كاتالينا. لم يختلف لون بشرتها عن لون الغرفة عديمة النوافذ التي اعتادت أن ترقد فيها بعد وضعنا في الفراش. لطالما بقيتْ إلى جوار سريري وهي تُهدهدني بأغانيها الحزينة كلَّما غاب القمر ليلًا وأخافني الظلام. ما زلت أتذكر كيف لمعت أسنانها كأنها يراعات تشقُّ الظلمات.

تاخمت غرفتها الضئيلة الوادي الصغير. لم تُشغل مصباحها قطُّ لكيلا تجذب الحشرات، ولهذا ملأتها دائمًا الظلال المشعشعة. فاحت منها رائحة المانجو الناضج صيفًا والطحالب والرطوبة شتاءً. لطالما سُمع فيها من بعيد الهدير العذب لمجرى الجدول. نامت على فراش خشبي لم يتذكر أحد من أين جاء أصلًا. استقرّت فوق هذا الفراش حاشية قديمة ورثتها مني، بعد أن ورثتها أنا من أخي. لا بد أن حشوها ظل مُحتفظًا بأحلامنا.

اسمها كاتالينا، وهو الاسم الذي تردد طوال اليوم في منزلنا. كفى المرء أن ينطقه فقط كي تظهر في ظرف ثانية وتفعل كلّ الأشياء التي لم نود أن نفعلها، ولتُنظف كل الأشياء التي لم نود أن ننظفها. لطالما قالت إننا سنستنفد اسمها من كثرة

نطقه. ناداها أبناء عمومتها أيضًا من بعيد، في مكالماتهم من عند ضفاف نهر كاوكا، لكنها عجزت عن سماعهم. أعتقد أننا صرخنا بقوة أكبر.

اسمها كاتالينا، وبدت كطيف. كانت نحيفة جدًّا وكلُّ عظامها بارزة. الشيء الوحيد الضخم في تشريحها الجسدي هو شعرها المموج الهائج الذي لم تتعلم قطُّ كيفية السيطرة عليه. سقط فوق ظهرها كشلال. لم تبتسم قط. لم تتحدث قط. بدت كأنها تدخر كلماتها، لأنها ادخرت كل ما يُمكن ادخاره.

لطالما قضت ساعات طويلة في المطبخ وامتعضت كلَّما تركنا الطعام في الطبق. قالت أحيانًا إن أطفالًا كثيرين يموتون من الجوع، فحسبتُ أنها تتحدث عن أطفال إفريقيا. ليست المسألة أن طعامها لم يرقنا، وإنما أن المرء وهو صغير يرغب فقط في تناول السكاكر. اشترت أمي أطنانًا منها، لكنها لم تكفنا قط، ففي بيت فيه خمسة أطفال لا يمكن للسكاكر أن تغدو كافية. مهما اشترت منها، لم تكفنا.

يوم اغتيل أبي، كان أخي الأكبر سانتي في فصل الرسم، والتوائم الثلاثة في المدرسة وأنا وحدي في البيت مع كاتالينا. صرنا خمسة زهور منزوعة من جذورها. لم يعرف أحد أين عليه أن يزرعنا أو ما الذي ينبغي أن يفعله بنا. ولا كلُّ سكاكر الدنيا كانت ستقدر على ملء الفراغ الذي تشكّل في معدة كل منا. هرب القاتل على دراجته النارية، وظل أبونا ممدّدًا على الرصيف وهو يختنق بدمائه.

انتظر أخوالي سانتي لدى خروجه من الفصل ومعهم النبأ. أمسك تحت ذراعه اللوحة المائية التي رسمها، ومعها وهْم أنه سيعلقها فوق إحدى الجدران. إنها زهور ذبلت في نفس اليوم الذي رُسمت فيه. لم تصل أصلًا إلى البيت. ما من أحد يتذكر أين نُسيت. ذهبت ماما لجلب التوائم الثلاثة من المدرسة. سيستغرق الأمر منهم سنوات لتفهّم حجم ما حدث. لا أزال أتساءل ما إذا كانوا قد تمكّنوا من فهمه فعلًا. حاولت فك شفرة سلوك كاتالينا. لا بُد أن قلبها ظل يتواثب داخل صدرها كلاعب أكروبات، بعد أن أجابت على الهاتف. أتذكّر أنها تنفست كأنها تبتلع غيمة؛ وأنها توقفت عن النظر إليَّ لكيلا تضطر إلى إبلاغي بالنبأ. أتفهّمها الآن: ما من أحد في العالم يودُّ أن يخبر طفلة أنّ أباها ميّت. ميّت... إنها كلمة غير موجودة في مفردات الأطفال.

ازدحم البيت في عطلة الأسبوع التالية بأناس جاؤوا وجلبوا معهم زهورًا لتقديم العزاء. نُودي على كاتالينا لتُقدِّم عصير المانجو والليموناده، وكي تحضر مزيدًا من القهوة ولتوزع السكاكر. أصبح في إمكاني أن آكل كل ما وددته من دون حساب، لكنني لأول مرَّة، لم أرغب في شيء. تمكنت أصلًا بمشقة من ابتلاع لُعابي نفسه.

وضعت كاتالينا باقات الورود في آنية مملوءة بالماء. كانت كثيرة إلى درجة استحال معها المشي من دون التعثر في أحدها، على الرغم من ضخامة بيتنا. لا أطيق رائحة الزهور المقطوفة

داخل آنية مملوءة بالماء. تبدو كرائحة الكنائس، كرائحة المقابر، كرائحة شخص ميِّت، كرائحة الحزن. لم تُخلق الزهور كي تُقطف. أكره أن يهدوني زهورًا ولا يمكنني مقاومة أن تنقلب معدتي كلَّما دخلت متجرًا للزهور. أفضِّل النباتات المزروعة لأنها وعد بأن الغد قادم. إنها إعلان عن الحياة.

لم تُسعفني كلماتي في عطلة هذا الأسبوع. وجَّه إليَّ الناس بإصرار نفس السؤال: "كيف حالك؟"، ولم أعرف قطُّ ما الذي يجب عليَّ قوله. كأن ثمة خيارًا مختلفًا عن كوني في حالة سيئة. لو قُتل أبوك، فلا يُمكن أن تشعر بشيء آخر. وددت أن أصبح غير مرئية من جديد. وددت أن أختفي وأختبئ حيث لا يُمكن لأحد العثور عليّ. من جاؤوا لزيارتنا بخلاف سؤالهم عن بديهيّات، بكوا في نفس الوقت معنا. لم نتمكن من التوقف عن الأمر.

ارتدت أمي أفضل دروعها. لم تخلعه من فوقها قط. لم أتفهّم في تلك اللحظة حاجتها إلى التحلي بالقوة. ستتمكن من إسباغ تمثيلها بالكمال إلى درجة أنه في يومنا هذا يصعب تحديد ما إذا كانت حزينة أو في حاجة إلى المساعدة. تقول دائمًا إن أخطر شيء قد يحدث لها، قد حدث أصلًا ولا يُمكن أن يقع أسوأ مما وقع. إنها مسألة حقيقية. أعتقد أن مواجهة مأساة حقيقية تجعل أي مشكلة أخرى تبدو محض حماقة، لأن معنى الجسامة يتبدل.

أصابني الإنهاك قرب المساء من كثرة تفادي الأحضان وتلقّي قبلات من ناس لم يُقبّلوني قطّ ولن يقبّلوني بعد ذلك اليوم على الإطلاق. أنهكتني رؤية أمي وهي تحاول الابتسام أمام كل هؤلاء القوم. وددت فقط أن أبقى بمفردي، لكن البيت امتلأ بأشخاص يأتون ويذهبون. لم أعرف من الذي قال إنَّ موت شخص قريب يتطلّب الصُحبة. وجود كلّ هؤلاء القوم مُزعج. يودُّ المرء أن يبكي وهو ينظر إلى السقف. يودُّ المرء أن يصرخ وهو يكّزُّ بأسنانه على الوسادة من دون أن يقترب أحد منه ويقول له إن كل الأمور ستكون بخير. يودُّ المرء أن يبقى بمفرده وأن يعانق ألمه؛ وأن يعتاد عليه؛ وأن يقبل أن هذا الألم سيبقى داخله طيلة حياته.

حينذاك، قررت التغلُّب على خوفي من الظلام واختبأت تحت فراش كاتالينا. بدت كل الأمور سوداء. فاحت رائحة المانجو العفن لأننا كنّا في منتصف موسم الحصاد واقتلعت الطيور الثمار بمناقيرها. تحولت الأرضية في الخارج إلى بساط ضخم من ثمار المانجو الناضجة التي ستبدأ في التحلل لأن أبي لم يعد موجودًا لجمعها. بدا صوت الجدول أشبه بالأنين، وهو في قاع الوادي.

لما اعتادت عيناي على الظلال المشعشعة، رأيت صندل كاتالينا المهترئ. رأيت حبوب مسبحة عند أحد جانبَي الفراش. رأيت حذاءها الملمع والمخصّص لأيام الآحاد، وحقيبتها البالية الممتلئة بملابسنا القديمة التي لم نعد نرتديها. رأيت

أكياسًا لرقائق بطاطس ومقرمشات "شيتوس" و"بوليكيسوس"* مدهوسة بين عوارض الفراش الخشبية وحاشيته. كان هناك أكياس بسكويت و"يوبيس"** ورقائق موز مقلية. كان هناك شوكولاتة وحلوى. كلّ شيءٍ كان موجودًا.

تساءلت، هل أحكي لأمي أم لا، لكنني لم أقل شيئًا. لم أختبئ هناك مرَّة أخرى ولم أشكُ مجدَّدًا من أن السكاكر ليست كافية.

(7) * اسم علامة تجارية لأحد أنواع المقرمشات الكولومبية التي تأتي في شكل كرات بطعم الجبنة. (المترجم).

(8) ** اسم علامة تجارية لأحد أنواع التسالي الموجودة في كولومبيا. (المترجم).

"بابا يُدللني. بابا يُحبني. أنا أحب بابا. بابا يحب ماما".

هذه هي الصفحات التي ملأها سانتي وهو يدرس في دفتر تمارين "ناتشو يقرأ ويكتب". أمسك بقلمه بقوة شديدة إلى درجة بدا معها كأنه سيكسره. راقبته وهو في كامل تركيزه فوق طاولة غرفة الطعام، وأنا أجهل متى سيحين دوري في تعلم هذا الأمر. لقد نسي أبواي أن يُدخلاني المدرسة. أنا أحب ماما. أنا أحب بابا. ماما تحبني. بابا يحبني.

ذات يوم، جاءت لتزورنا عمة لديها ابنة في مثل عمري. حكت بفخر أنها أصبحت مستعدة لبداية الدراسة. سألتْ في أي مدرسة سجلني أبواي. نظر أبواي بعضُهما إلى بعضٍ بتوتر. لقد نسيا هذا الشأن الصغير. سوَّغتْ ماما موقفها: "مع هذا البطن الهائل، لا يُمكنني التفكير في شيء آخر". إنها محقّة. أوشكت على الانفجار بوجود ثلاثة أطفال داخلها. ماما تحب بابا. بابا يحب ماما. ماما تُدلل بابا. بابا يُدلل ماما.

لم تعش أمُّنا معنا في تلك الأيام لأن الطبيب أخبرها بأن حملها مرتفع الخطورة، ولهذا عليها أن تبقى في المدينة،

تحسّبًا لوقوع أي شيء. لطالما اكتست الجدية وجهها وهي تقول كلمتَي "أي شيء"، إلى درجة أنني اعتدت أن أتخيل طوال اليوم أمورًا قد تحدث لامرأة لديها ثلاثة أطفال في بطنها؛ أو أشياء قد تحدث إلى ثلاثة أطفال محشورين داخل هذا الحيز الصغير جدًّا. مرت في رأسي ملايين المواقف التي جلبت معها ملايين الأسئلة التي لم يقل لي أحد إجاباتها.

أطاعت أمي الطبيب وانتقلت لتسكن في بيت الجدة. هكذا، صرت أبيت أحيانًا في المزرعة وفي مرّات أخرى عند الجدة. لم يرُقني هذا كثيرًا. سرقت ماما الاهتمام كله. قبل هذا، لم يكن الوضع كذلك. لطالما تحرق جدّاي شوقًا إليّ. أول ما فكرت فيه هو ضرورة أن أصبح حُبلى. لكنني استبعدتُ هذه الفكرة فورًا، لأن ثاني ما فكرت فيه أنه لا توجد طريقة لمنافسة حمل ثلاثي. سامحت ماما وسمحت لها بالاستمرار في سرقة الاهتمام. في نهاية المطاف، استحقّت المسألة مع هذا البطن الضخم. أنا أحبُّ ماما. ماما تحبني. أنا أدلّل ماما. ماما تُدلّلني.

تنقلت أمّي على كرسيٍّ مدولب من فرط ضخامة بطنها، وكلّما ودت أن تتقلب على فراشها ليلًا، اضطرت إلى إيقاظ خالتي تيتا كي تُساعدها في هذا الأمر. اعتادت جدتي أن تجعلها تجلس على مقعد عديم الظهر أسفل الدش لتحميمها. تلصصتُ عليهما من خلال حزّ الباب. نظّفتها الجدة بالصابون وغسلت لها شعرها لأن أنفاس أمي لم تسعفها أصلًا لترفع ذراعيها. لطالما أغمي عليها بعد أي مجهود، مهما تضاءل

حجمه. بعدئذٍ، كانت تُطعمها كأنها رضيعة. اضطروا إلى إجبارها على تناول الطعام. لم أفهم قطُّ لِم أرهقوا أنفسهم بهذا الأمر، خاصّة وأنّها تتقيّأ دائمًا أي شيء تأكله. لم يمنحها قلبها القوة اللازمة للاعتناء بكل هذه الحيوات.

اكتشفتُ سريعًا أن البقاء بمفردي في المزرعة مسلٍّ جدًّا. قضيت الوقت وأنا أعتلي الأشجار من دون أن يقول لي أحدٌ شيئًا. كلَّما مر الوقت، صعدت أعلى وأعلى، إلى درجة أن الطيور لم تعد تخشاني. قطفت الفاكهة وبمساعدة كاتالينا حوّلتها إلى معلّبات ومثلجات كريمية ومجروشة وحلويّات. نثرت البذور في البستان وجلست لأراها وهي تنمو. تحدثت مع الأشجار. طاردت النمل قاطع الأوراق. كانت صفوفه طويلة جدًّا إلى درجة أنني عجزت عن اكتشاف نهايتها. ساعدت في تفقيس البيض وبحثت عن الأرانب البرية. جمعت العاج النباتي للسناجب وتحممت في النهر مع الكلاب ونظفتها من البراغيث والثآليل. قضت كاتالينا أمسيات كاملة وهي تفكّ شعري المعقّد. لطالما كان طويلًا جدًّا. كلَّما استسلمَتْ، قصّت الخصلات المعقودة بالمقص وجعلتني أعِدها بأننا لن نُخبر بابا بالأمر. لطالما أحبَّ شعري. قال إنه بدا كحقل قمح. أكثر ما راقه هو أن يجلس ليضفره لي.

عرفت أسماء كل الزهور والأشجار الموجودة في الحديقة. بنيت مدنًا كاملة لها أسوار وخنادق مائية فوق الأرض الرملية. هاجمتها تنانين في بعض المرات وفي مرّات أخرى

ديناصورات. نزلت إلى الجدول لجمع الشراغيف ووضعتها في أوعية لأراقبها وهي تتحول إلى علاجيم. لطالما ماتت قبل أن تنجح. علَّمتُ ببغاواتي كيف تتحدث وقدَّمتُ شرائح ممتازة من لحم الخنزير المجفف إلى سلاحفي. لطالما شك أبي في أن كاتالينا هي من تلتهمها. لم أقل شيئًا حفاظًا على مصلحة سلاحفي.

عشت وأنا نشطة ومشغولة أكثر من أي شخص في العالم. تعلمت أمورًا مفيدة فعلًا. اعتنقت حياة متواضعة مليئة بالجمال. نمت مع حلول الظلام واستيقظت مع شروق الشمس. شق عليَّ كثيرًا تعلم قراءة الساعة. لم أفهم ما هي فائدة الساعات ولماذا يعيش البالغون وهم مرتبطون بها. تذوقت الحرية، حتى جاءت عمتي ذات مساء واقترحت نقيضها. قالت مستنكرة: "لا يمكن أن تبقى الطفلة في المزرعة من دون أن تفعل شيئًا. يجب أن تبحثوا لها عن مدرسة، رغم أنّكم في هذه الفترة من العام لن تجدوا مكانًا لها أصلًا".

أحد إخوة أبي قسّ. كادت كلُّ الراهبات أن يمتن من أجله. أتفهمهن الآن؛ من الناحية الجسدية، بدا ملاكًا. أجمل رجل في العالم. كان طويل البنيان. أقصد هذا النوع من الطول الذي يُثير الاحترام إلى درجة تجعل أي شخص يقف إلى جواره يبدو تافهًا. أكثر ما أتذكره يداه الضخمتان. أتذكر أيضًا هاتين العينين الزرقاوين اللتين تُنيمان المرء مغناطيسيًّا من مجرد النظر إليهما. مكالمة واحدة منه وكانوا سيستقبلونني في أي مدرسة،

ما دامت مدرسة للراهبات.

حصل لي أنا وحدي على مقابلة بعد انتهاء مواعيد التقديم الأصلية. رافقتني الخالة تيتا لأن ماما لم تقدر على التحرك. ضايقني الحذاء لأنني لم أستعمله في المزرعة قطّ. امتلأت قدماي، اللتان كانتا مثل الـ"إمبانادا"*، فجأة بالبثرات. لم يقدر أيُّ حذاء على احتوائهما. تآكلت أظافري وامتلأت ركبتاي بالقشور والخدوش والرضوض فلأننا لم نمتلك تلفازًا، قضيت يومي كله في الخارج وأنا ألعب. عشت واقعة على الأرض من فرط نشاطي. لم أبكِ قطّ، لأن أحدًا لم يكن موجودًا في تلك الأيام ليعيرني اهتمامه حين أسقط وأصيب نفسي. اكتشفت أن البكاء ليس مفيدًا في غياب البالغين، لأنه لا يُحقق تأثيره المرجو.

وصلنا إلى المدرسة. لم أر راهبة قبل ذلك قط. شعرت بالرعب. لم يُظهر الرداء الكنسي الرمادي الذي ارتدته شيئًا سوى وجهها. شق عليَّ فهم الأسباب التي قد تدفع أي امرأة إلى الاختباء وراء ملابسها بهذه الطريقة. بدا جلدها رقيقًا كالورق الشفاف وامتلأ بالتجاعيد. تدلّى من رقبتها صليب أكبر منها. كانت أسنانها صغيرةً جدًّا وأصابعها مكتنزة كالسجق. سألتني عن كلِّ شيء. لم أنطق ولو كلمة واحدة. سلَّمتني قلمًا في يدي اليُمنى وجعلتني أرسم أشياء لم أستطع رسمها لأنني

(9) * نوع من المعجّنات المحشوة باللحم أو الجبن وتشبه نوعًا ما القطائف المصرية. (المترجم)

عسراء، وحينما حاولت تغيير اليد، منعتني. قالت إن اليُسرى يد الشيطان. أمضيت بقية اليوم وأنا أنظر إلى يدي.

خرجتُ وبقيتْ الراهبة لتتحدث مع خالتي. سمعتها تقول لها إنهن لا يمكنهن قبولي. شرحتْ لها تيتا الوضع: التوائم الثلاثة، والمزرعة، وخطر الحمل، وكلَّ التغييرات التي اضطررتُ إلى مواجهتها مؤخرًا. سألت الراهبة إلى أي روضة أطفال ذهبتُ. تلعثمت خالتي: "حسنًا... لم تذهب الطفلة إلى أي روضة أطفال". نفثت الراهبة الهواء كحصان، إلى درجة أنني سمعتها من الخارج. أصرت تيتا: "أماه، حبًّا في الرب، افهمي الوضع". خالتي تُدلّلني. أنا أدلّل خالتي. خالتي تحبّني. أنا أحبُّ خالتي. بعدئذٍ ببضعة أيام، اتصل أبي مجدَّدًا بأخيه. يبدو أن الكهنة ليسوا عديمي الجدوى جدًّا كما يبدون. منحتنا الراهبات فرصة أخرى في الأسبوع التالي. تلقّينا تحذيرًا: "ليكن معلومًا أنها الفرصة الأخيرة".

وعدوني بأمور رائعة في حياتي لو أجبت عن الأسئلة التي سيوجّهونها إليَّ في المقابلة. طلبتُ واحدة من تلك الدمى التي تبكي كلّما خرجَتْ (اللهاية) من فمها البلاستيكي. سموها "كوتشيس". امتلكت ابنة عمتي دميً كثيرة منها. أردت أن أعرف ما إذا كنت سأستعيد الاهتمام الضائع وهذا الرضيع بين يديّ. لم أمتلك قطُّ لعبة من هذا النوع. كرهت الدمى وألعاب السيارات الصغيرة والمطابخ الصغيرة. بدت لي دمى "باربي" و"كين" من أسخف ما يكون. لطالما قدّم لي أبي هدايا أصليّة.

إنها عصيٌّ خشبية طويلة للسير، وصنانير صيد، وأحذية تزلّج، وقوارب تُنفخ بالهواء، وصناديق كنوز اعتاد أن يدفنها في أماكن مختلفة وخرائط لكلٍّ واحد منها. تماثيل لسنافر وعفاريت مخفية بين الأجمات. أوراق لعب، وبوصلات، وعدسات مكبرة، وكشافات، وأشياء من هذا القبيل.

قالوا لي قبل المقابلة إنه من الطبيعي أن ترتدي الراهبات ملابس مثل هذه، وأن عليَّ ألّا أحاول النظر إلى أرديتهن، وألا أسأل هل لديهن شعر أو هل هن مصابات بالصلع، أو هل يستخدمن ملابس داخلية أم لا. قالوا لي إنهن أحببن معبودًا لم يرينه قطُّ لسبب يسير وهو أنه غير مرئي أصلًا، وأنهم يعبدون العذراء لأنّها ولدت طفلًا من دون حمل. قالوا لي إنه يجب معاملتهنَّ كـ"أمهات" أو كـ"أخوات". لم أفهم كيف لهؤلاء السيدات الكئيبات أن يكنَّ أمي أو أختي. لم تنسجم كلُّ هذه الأمور أمامي.

اقترحت خالتي عليَّ أن أرتدي حذاء الطقم الأحمر في بقية الأسبوع كي تعتاد عليه قدماي. أمرتني أيضًا بشراء فستان طويل لكيلا تظهر خدوش ركبتيَّ. أتذكر الشريط الوردي الذي ربطوا به شعري. أظافري التي بردوها ولوّنوها لأول مرَّة بطلاء لامع شفاف. طلبوا منّي ألّا أتحدث بقوة، وأن أظلّ مبتسمة طوال الوقت، لكن بتعقل، لأن ضحكاتي العالية لها شهرتها وتُسمع من على بعد عدة كيلومترات. لا ينبغي أن أوجّه أسئلة مزعجة أو أن أسخر من الراهبة، وأن يقتصر كلُّ ما أفعله على الردِّ على

أسئلتها. فجأة، بدوت طفلة عادية كأيِّ طفلة أخرى. افتقدتُ مزرعتي وكلابي وببغاواتي وقدميَّ الحافيتين. وددتُ أن أصعد فوق شجرة وألّا أنزل مرَّة أخرى على الإطلاق.

وصلت إلى المقابلة. إنّها نفس الراهبة. تفقدتني من قمة رأسي حتى أخمص قدميَّ. على الأقل بدوت في مظهر يليق بالمدرسة. سألتني عن كلِّ شيء، فأجبت عن كلِّ شيء. فاض مني اللطف. رغبتُ في دمية "كوتشيس" أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. نظرت إليَّ خالتي بفخر، والراهبة أيضًا. سألتْ لماذا تعاونتُ جدًّا، فقلت لها إنهم وعدوني بدمية إن أجبت عن كلِّ أسئلتها.

وحينئذٍ حدث أسوأ شيء في العالم: قبلوني في المدرسة. لم أتعلم قطُّ مثلما تعلّمتُ في تلك السنوات التي عشتها وفقا لهواي وأنا في المزرعة. لكنني لم أعرف هذا الأمر في تلك اللحظة. سيستغرق منّي سنوات، حين أبدأ مجدَّدًا في التفكير بنفسي. ربَّما في وقت متأخّر جدًّا لأفعل شيئًا بخصوص الأمر.

الأمر الوحيد الجيد في مسألة المدرسة أنّهم علموني القراءة والكتابة. بدأت أكتب صفحاتي سريعًا: أنا أحبُّ ماما. ماما تحبُّني. أنا أحبُّ بابا. بابا يحبُّني. لما رآها أبي، ابتهج جدًّا واحتفظ بها طيلة سنوات في دُرجه السري.

خرجنا من المقابلة مباشرة نحو المركز التجاري كي أحصل على جائزتي. وُلد التوائم الثلاثة بعدئذٍ بأيام قليلة. بكوا طوال اليوم، كحال "كوتشيس"، ومع ذلك لم أتمكّن من جعل أحد يوليني اهتمامه. هكذا، نزلت في إحدى عطلات الأسبوع

إلى الجدول ورميتها في الماء. أخذها التيار فورًا. لم يعثروا على جسدها. لم يفتقد أحدٌ بكاءها، ففي البيت عدد كافٍ من البكّائين. لم يكن ثمة لحظة صمت واحدة، ليلًا أو نهارًا. إنها مدعاة للجنون. أصابني اليأس في مرّات كثيرة إلى درجة أنني بكيتُ بنفسي وأنا أقول: "لا أرغب أن يبكي الأطفال أكثر من هذا". في بعض المرّات، أمي هي من بكتْ وقالت: "أنا منهكة جدًّا. أرغب في نوم شهر كامل. أرغب في الصعود إلى أعلى الجبل وألّا أنزل منه أبدًا".

بخلاف كاتالينا، حظينا بعاملتين أخريين للخدمة المنزلية. جاءت جدتي وخالاتي يوميًّا لتقديم المساعدة. ثمة عمل فائض لكلّ هؤلاء. الفارق أن الناس كانوا يرحلون حين يصيبهم الإرهاق، أما نحن فاضطررنا إلى البقاء وسماع الأطفال وهم يبكون: نغسل الحفاضات ونطهر الرضّاعات ونسمعهم وهم يبكون. ندفعهم إلى إخراج الغازات ونهزُّ مهودهم ونسمعهم وهم يبكون. نغلي الماء وننظف قيئهم ونسمعهم وهم يبكون. كانت مسألة لا تنتهي أبدًا. كلّما سكت واحدٌ، بدأ الآخر، وحين يتوقف هذا، يبدأ الأخير، وحين يتوقف الأخير يكون الأوّل قد استراح ليبدأ مرّة أخرى بعد تجديد قواه، وهكذا دواليك كلعبة دوامة خيول لا تنتهي. في بعض المرّات، بكى ثلاثتهم في نفس الوقت. وفي مرّات أخرى، بكى اثنان منهم. وفي مرّات ثالثة، واحد فقط. بكى أحدهم دائمًا. دائمًا. دائمًا. دائمًا. ثمة ليالٍ حلمت فيها، بعد أن نمتُ أخيرًا، بأنّهم يبكون.

كلّما مرضوا، فعلوها معًا، فتذهب أمي بصاحب الحالة الأخطر إلى الطبيب، وتقدّم إلى الاثنين الآخرين نفس العلاج. يُمكن اتهام أمّي بأيِّ شيء، عدا أنها امرأة غير عملية. لطالما ارتعب الناس وقالوا لها: "يا لكِ من مسكينة، ليُساعدك الرب"، فأجابتهم: "لن يأتي لغسل الحفاضات، لذا تعالوا أنتم وقدموا لي يد العون".

بدأ التوائم الثلاثة يكبرون، ومهما بدا أمرًا لا يُصدق، فإن كلَّ الأمور ساءت بعدئذٍ. صار منزلنا كساحة معركة. انتشرت الشخبطة فوق الجدران وتَلِفت الأرائك وتدلّت أبواب الخزائن، وانكسر زجاج النوافذ. لم يبق رفٌّ واقفًا ولا حتى لوحة أو أيُّ زينة. حينما انكسر آخر طبق وآخر كوب استبدلت أمي كل شيء وجاءت بأدوات من البلاستيك والصلب الذي لا يصدأ. لم يعد أيُّ شيء يتضرر إن سقط على الأرض نافعًا. وقعت يوميًّا حوادث من كل الأصناف: أسنان مكسورة، وعظام مشروخة، وإصابات، وجروح، وعضّات، وسقطات. أوشكنا جميعًا على الغرق في المسبح في نفس المرة. لا أفهم فعلًا كيف بقينا على قيد الحياة.

حلّت أمي كل الأمور بدوائها المفضل: "لا- تفكر- في- هذا- الأمر". لو أن الأمر خطير، لجأت إلى قرص من "دوليكس"*، ولو أنه أخطر، فالحلُّ قرصان. سريعًا، اكتشفنا أن الإصرار في الشكوى لا يستحقُّ العناء. قد يشكو أحدنا: "إن

(10) * مسكن ومضاد للحمى. (المترجم)

ساقي تؤلمني كثيرًا ولا يمكنني السير"، فتجيبه ماما: "إذن، لا تسر". لم تفد الشكوى بشيء. وصلت مستويات تحمُّلنا للألم إلى حدود لا تخطر على بال. كنّا لنصبح هدفًا لدراسة طبية. لم يحق لأحد أن يمرض أو إنّ أحدًا لم يمرض لكيلا يضطر إلى تحمّل الألم الفظيع جدًّا لسماع ماما وهي تقدم له وصفة: "لا- تفكر- في- هذا- الأمر".

تذكّروا أن يُلحقوا التوائم الثلاثة بالحضانة؛ وهذا ليحظوا ببعض السلام في البيت أكثر من أيِّ شيء آخر. تعاملوا مع إجراءات المدرسة قبلها بوقتٍ كاف. بعد مرور فترة من الزمن، بدؤوا يملؤون صفحاتهم بأنفسهم: أنا أحبُّ بابا. بابا يحبّني. بابا يحبّ ماما. أنا أحبّ بابا.

تعلموا الكتابة، لكنهم لم يتمكنوا من أن يعرفوا حقَّ المعرفة ما يشعر به المرء حين يصبح لديه أب يحبّه.

لم ترُق الأرانب أمي، أو ربَّما أنها لم ترُقها بنفس الطريقة التي أحبَّت بها الحديقة. عشقتْ النباتات أكثر من أي شيء آخر في العالم. كانت هكذا. لم يقل أحد إن المنافسة من أجل مودّتها أمرٌ سهل. لطالما قالت إن الأرانب تأكل الخضرة. كانت من النساء اللاتي يتحدثن مع النباتات، ونباتاتها من النوع الذي يطيع ما تقوله.

وبّختْ النباتات التي لم تُزهر، وهنأتْ ما امتلأ منها بالأزهار. غدا بيتنا أشبه بدفيئة مزدحمة بالنباتات، فصارت موجودة في الشرفات وفوق فتحات النوافذ، وفي الفناء، وفي الكشك. استحوذت بلا حياء على الأروقة والسقف. بدت كأنها صاحبة العقار، أما نحن فمجرّد مدعوين. امتدت أوراقها أحيانًا بصورة تُعيق السير في الأروقة، فإذا بماما تقول لنا أن نبحث عن مكان آخر لنمرّ منه، فالبيت كبير جدًّا على أن نسير دائمًا من نفس المكان. عانقت الأعمدة وغطت الجدران وزحزحت القراميد من أماكنها. تدلّت من العوارض وسدّت مصارف المياه، وخرجت من المراحيض. لو دخلت إحدى الأذرع الأخطبوطية لشجرة لبلاب عبر نافذة غرفة، لم يقدر

أحد على قطعها؛ إذ اعتبرت أمي أن الأنسب هو عدم إغلاق النافذة مجدَّدًا. أي شيء ممكن، إلّا إلحاق الأذى بالنباتات. لهذا السبب لم تسمح لي بامتلاك أرانب. لطالما قالت: "إنها لا تتوافق مع الحديقة".

نمت النباتات التي زرعتها أمي أسرع من البقية وأنتجت زهورًا وفواكه أكثر. قدّمت لنا أحيانًا كمّية كبيرة منها إلى درجة أنّنا عجزنا عن أكلها كلِّها. صنعت كاتالينا مجروش المانجو، ومثلجات الماراكويا، وعصرت البرتقال والليمون طوال اليوم، لكن بدا الأمر كأن الفواكه لا تنتهي. أكلنا القشطة الشائكة واليوسفي والجوافة حتى آلمتنا معداتنا أو حتى أصابنا الإنهاك. كفى المرء فقط أن يلقي بذرة ثمرة مانجو في الوادي الصغير كي تنبت شجرة بعدئذٍ بأيام قليلة. لطالما قطع كبير الخدم أعوادًا لتسييج العقار، وإذا بهذه الأعواد تمتلئ في ظرف أسابيع بالبراعم، وتتحول بمرور السنين إلى أشجار ضخمة وارفة. اعتادت أمي أحيانًا أن تعلّق سباطة موز في إحدى عوارض الفناء، فإذا بها تختفي بعدئذٍ ببضع ساعات. كانت الطيور كثيرة جدًّا. عثرنا في أحد الأيام الاستثنائية على قرد "ميكو" يقشر إحدى ثمار الموز بأناقة شبه بشرية. كانت هذه الأمور طبيعية في بيتنا، وآنذاك، لم أكن قد علمت بعد مدى غرابتنا.

عشنا في مزرعة في ضواحي ميديين في حقبة لم يُعد فيها هذا الأمر شائعًا. لطالما نظر الناس إلينا باستغراب حين أدركوا

أين نعيش. تأخّرنا في الحصول على تلفاز وهاتف في حقبة اعتُبر فيها امتلاك تلفاز أو هاتف شيئًا طبيعيًّا كامتلاك فراش أو أريكة. كنّا خمسة أبناء في حقبة اعتُبرت فيها العائلات الكبيرة أمرًا عفا عليه الزمن. ثمّة تفسير جيّد لهذا الأمر: التوائم الثلاثة، "الأحمر" و"الأبيض" و"الأسود". مسألة "الأسود" مجرد كلمة لا أكثر لأننا تحلّينا جميعًا ببياض يكاد أن يغدو شفافًا، أمّا هو فكان بياضه عاديًّا. اسمه بابلو واعتدنا أن نناديه "الأسود" كأحد أشكال المودّة. إنه أكثر مَن تشابه مع أبينا. تألّق بذكائه وامتاز بسرعة بديهة صعّبت الفوز عليه في أيِّ نقاش: إن فكر المرء في حجة، سبقه هو في صياغة فكرتين واضحتين أو ثلاث أفكار واضحة، فلا يجد المرء مفرًّا من الشعور بأن ثقل أفكاره قد دهسه. من الأفضل أن يصبح "الأسود" صديقك، لم يقدر أحد على النجاة من مزاحه.مكتبة .. سُر مَن قرأ

حظينا بكلاب، وبالمثل بسلاحف وعصافير كناري وببغاوات وطيور آرا وطواويس، وجديان وخيول وأبقار ودجاج وسناجب وأسماك وطيور محاكية. لم نمتلكها كلَّها في نفس الوقت بالطبع. الأمر وما فيه أن أرض العقار كانت قد دخلت في تقسيم المباني حديثًا، وظلّت فصائل برية كثيرة تُحيط بها. أصررت غالبًا على إنقاذ كل الحيوانات المصابة التي وجدتُها في مسيراتي، لكنّها لم تُرد المغادرة بعد شفائها. كذلك، كلَّما شعر أحد معارف العائلة بأن مسؤولية حيوانه الأليف تثقل كاهله، أهداه إلينا. استقبلناها جميعًا وأحببناها كلها. مفضّلاتي هي الببغاوات، والكتاكيت، والسلاحف.

على الرغم من هوسي بالأرانب، لم أتمكن قطُّ من إقناع أمي بأن تتركني أمتلك أيًّا منها، حتى ولو أرنبًا واحدًا فقط. لم أحظ بجارات من سنّي يُمكنني اللعب معهن، ولم تأت صديقاتي من المدرسة إلى المزرعة وإخوتي كلُّهم ذكور. لم يجمعنا أيُّ شيء مشترك، باستثناء حب اللعب على "نينتندو". وصلت إلى وضعية شعرت فيها براحة أكبر مع الحيوانات عن الناس. لم تتغير أمور كثيرة حتى يومنا هذا.

ذات يوم رأيتُها تمر أمامي. كرةٌ بيضاء مزغبة تتواثب أمام نافذتي. ربَّما هي إحدى زهور الطرخشقون المخزني التي من فرط كبرها واستدارتها ظننتها فراء أرنب. ربَّما هو قطٌّ بري أو ظربان. بل ربَّما هي واحدة من دجاجاتي التي اختبأت بين الأجمات لترقد فوق دستة من البيض، ومع ذلك كنت واثقة من أنني رأيت أرنبًا، لأنه حينما لا يكف المرء عن التفكير في شيء، يظن دائمًا أنه يرى هذا "الشيء" في كل الأنحاء. لهذا لم أر في هذه الفترة سوى الأرانب البرية. لم يهم أين أنظر، إذ رأيتها دائمًا. لما ذكرت المسألة على العشاء، سخروا جميعًا مني.

قال سانتي الذي عدَّ نفسه عليمًا بكل شيء لأنه الأكبر سنًّا:

- ما من أرانب موجودة هنا.

قال بابلو:

- الأرانب البيضاء موجودة في المعامل فقط، كحال الجرذان البيضاء، وتموت لأنها تخضع إلى تجارب.

احتجَّت أمي بصوت رفيع مردُّه الاستياء أكثر من الدهشة:

- نباتاتي!

وبينما يتصارع عنادي مع إدراكي لقبول أنني لم أر أيّ أرانب، وأنها لا يُمكن أن تكون موجودة في الجوار، إذا بأبي يقول لي سرًّا:

- أعرف أين هو جحر الأرنب. سنأخذ له بعض الجزر في عطلة الأسبوع.

كنا في يوم الثلاثاء أصلًا ولهذا صار أسبوعًا أبديًّا بالنسبة إليّ، بالصورة التي قد يصبح بها الأسبوع أبديًّا حينما يعرف المرء أنه سيأخذ بعض الجزر إلى أرنب مجهول لأول مرَّة في حياته.

جاء يوم السبت وبدأت نزهتنا: نزلنا فوق المسار الحجري، وعبرنا غابة الصنوبر، وقفزنا فوق الجدول، وبلّلنا أحذيتنا لأنها أمطرت كثيرًا فارتفع منسوب الماء. سرنا بمحاذاة السياج، وفتحنا طريقنا بين الحشائش باستخدام الساطور، ونفضنا الأوراق الذابلة لإفزاع الأفاعي. اضطررنا إلى وضع حجارة فوق المستنقع وقياس خطواتنا بدقة لكيلا ندوس الضفادع الشجرية.

وجدنا الجُحر داخل شق في حجر ضخم. أمسكتْ يد أبي بيدي ووجهتْها داخل الجُحر بالحسم الذي يُميِّز شخصًا يعرف مآل بحثه. حينئذٍ، لمستُه. كان فراء الأرنب أنعم من كل ألعابي، ومن غطائي المصنوع من صوف الآلباكا*، أو سجادة صوف اللاما التي غطّت أرضية الصالة. ما من شيء في العالم أنعم من فراء ذلك الأرنب، ويدي في يد أبي، وأنا أداعبه. لو أن السعادة فعلًا موجودة، فلا بد أنّها تشبه هذه اللحظة. تركنا له الجزرة وتعهّدنا بالعودة في السبت التالي.

مرّ أسبوع أبديٌّ آخر. لم تحمل فيه الرياضيات أو اللغة الإنجليزية أو حصص الألعاب أيَّ أهمية. وددت فقط أن أذهب لمداعبة الأرنب وأن أجلب له جزرًا وملفوفًا. وهكذا كانت الحال: ذهبنا كل سبت لنزوره من دون انقطاع، وانتظرَنا هو دائمًا داخل جحره، بلا حراك، وفي شدة السكون كي نتمكن من مداعبته.

لم أتمكن من لقاء الأرنب في موعدنا في ذلك السبت، لأن بابا قُتل يوم الجمعة. انشغلت كثيرًا بحضور الجنازة وبعدئذٍ لم أحظ بأحد يذهب معي لزيارته. لا أحد ليقفز معي فوق الجدول وليعبر السياج وليقطع الحشائش وليُفزع الأفاعي وليضع الحجارة فوق المستنقع لتفادي الضفادع الشجرية. لا أحد ليفعل معي أمورًا غير تقليدية. مرّت أيام السبت من دون مستجدات. كانت بطيئة كالسلاحف، وبالمثل حزينة، كأنين

(11) * حيوان يشبه اللاما موجود في بعض دول أمريكا اللاتينية ويتميز صوفه بالنعومة الشديدة. يُسمى أيضًا ألبكة. (المترجم)

مجرى الجدول؛ كأغنيات كاتالينا.

في تلك الأثناء، تراكمت الساعات وصارت أيّامًا وتحوّلت الأيام إلى أسابيع لأن الزمن حاله كحال سريان جدول الماء: لا يتوقف. في تلك الأثناء، استمررنا في محاولتنا للتأقلم على الوضع الجديد. تفقدنا كل الصور التي ظهر فيها بابا، وبكينا ليلًا أسفل أغطيتنا ونهارًا ونحن نغلق الحمّام على أنفسنا. ذهبنا إلى المقبرة في كل الآحاد لنأتي إليه بالزهور ولنجتث الحشائش الضارة التي نمت على جانبَي شاهد قبره، إلى أن جاءت مرَّة لم نتمكن بعدها من العودة.

قال صاحب محطة الخدمات الواقعة أمام المقبرة، التي اعتدنا أن نتوقّف للتزود فيها بالوقود، لأمي إنه من الأفضل ألّا نأتي. قال: "يدرك المرء هنا بعض الأمور، من دون أن يرغب". لم نعرف ماهية ما أدركناه، لكننا افترضنا أنه جسيم بصورة لا تستوجب العودة. عانيت من مجرد التفكير في أن الحشائش تملأ القبر. إن قبرًا مليئًا بالحشائش لا يليق بأبي.

استيقظنا صباحًا ونحن نفكر فيه ونمنا ليلًا مع نفس الفكرة. لم أتمكن من اجتثاث صورة تعبير وجهه الأخير من رأسي. بدت لي مسألة أن يتعفن هذا الوجه الذي تذكرتُه جيّدًا جدًّا تحت الأرض وأن تلتهم الحشائش شاهد قبره شيئًا لا يُمكن تصوره. بدا الأمر كأننا لن نتأقلم أبدًا على غيابه، والحقيقة أن المرء لا يتأقلم أبدًا، وإنما يستسلم عبر قوّة الاعتياد. لقد توقفتُ عن التفكير، حتى في الأرنب نفسه.

تسلّحتْ أمي بالشجاعة بعد مرور أكثر من أسبوع على إخراج كل أغراض أبي. قال أحد ما إنّ هذا سيساعدنا في حزننا، لهذا ورطتْنا جميعًا في هذا النشاط. إهداء الملابس والتبرع بالكتب وتوزيع كنوزه الصغيرة علينا؛ تلك الكنوز التي ليس لديها سوى قيمتها العاطفية: قلمه، ودفتر ملاحظاته وساعته. عدسته المكبرة، سكينه، نظارته المكبرة. لقد خرجتْ من دُرجه -الذي بدا كأنه قبعة ساحر- كريّات زجاجية، وأسهم هنود حمر، وعملات من أماكن غريبة. خرائط، وبوصلات، وسيوف. خرجت أوراق لعب وقواقع وساعات رملية. خرجت صفحات "ناتشو يقرأ ويكتب". أنا أحبُّ بابا. بابا يُحبّني. فجأة، خرج فراء الأرنب الأبيض والناعم، فتعرَّفت عليه بمجرّد أن لمسته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثمة حقبة لم أكفّ فيها عن اعتلاء شجرة جوّافة عملاقة سكنت فناء بيتنا. لم تملّ هذه الشجرة قطُّ من إنتاج الثمار. التقيت فوق فروعها بطيور وسناجب وحيوانات أبسوم ونحل ووطاويط. كفت ثمارها الجميع وسقط ما فاض منها على الأرض وتراكم بعضه فوق بعض، فتمازج مع البساط النباتي المائل للحمرة الذي طالما آل إلى التخمر وفاحت منه رائحة تشبه الخلّ. أنبتت الكثير من هذه البذور، فامتلأ المكان سريعًا بأشجار جوّافة صغيرة نمت ساعية لملاحقة ضوء الشمس.

اختفيتُ بمرور الوقت بصورة أكبر من المشاهد العائلية التقليدية كي أقضي وقتًا أطول فوق شجرة الجوافة. لم تعد عصافير التناجر تخشاني، وصارت طيور المطموط المتوجة الزرقاء تهز أمامي ذيولها المتقزحة وريش رأسها الأخضر المزرق. عرفَتْ أمي كيف تستغلّ الحصاد كلَّه بصورة جيّدة جدًّا، لهذا لم يخلُ البيت قطُّ من حلوى الـ"خاليا" والمثلجات المجروشة وحلوى الـ"بوكاديو" والشراب المركَّز، أو باختصار أي شيء ينتج من خلط الجوافة بالسكر أو الـ"بانيلا" في أشكال وأنواع مختلفة من الطهي.

ذات يوم شاهدني أبي أتوازن فوق غصن وأنا أحاول قراءة كتاب وتحدّي الجاذبية، لهذا اقترح عليَّ أن نبني بيتًا فوق الشجرة. تحمّست كثيرًا للفكرة، التي بدأت بمجرّد لوحين خشبيين مُثبتين بمسامير. أضفنا تحسينات وتعديلات مع كل عطلة أسبوعية، وفي النهاية بات البيت مزودًا بجدران ونوافذ وسقف. بعدئذٍ، أضفنا شرفة صغيرة تطل على الجدول، واستقبلتُ هناك زيارات الطيور المحاكية وعصافير الأقطروس. أثثناه بوسائد وأغطية وركّبنا رفوفًا لكتبي ونحتنا نجومًا فوق الخشب بمسمار صدئ.

وصل أبريل بعنف أمطاره واستمرارية حبات برده لمهاجمة بيتي الواقع فوق الشجرة. اضطررت إلى هجره لأنه، مع أول وابل، غرقت كل كُتبي وابتلّت أغطيتي. في تلك الأيام، فقدَتْ الشحرورة ذات الساق الصفراء البيضَ الذي احتضنته، وأطاحت زوبعة بخليّة النحل. كلّما حلّ الليل، سقطت خيوط الماء على الأرض بإصرار كبير جعل بساطها المائل للحمرة يختلط مع التربة السوداء والأوراق الساقطة. انبعثت رائحة أنفاس عفنة من الأرض في صورة بخار، من دون أن تتمكن شجرة إكليل الجبل أو شجرة الكافور من فعل شيء لمواجهتها.

تحوّلت الأيام إلى أسابيع ولم تهدأ الأمطار. لم أتمكّن من العودة إلى مأواي لأن الخشب صار زلقًا وابتلع المستنقع خطواتي، فنظرتُ حينذاك إلى الشجرة من نافذة البيت الرئيسي

وأنا أتضرع لها كي تُقاوم. ثقبت حباتُ بردِ العواصفِ الأوراقَ بعنف الشظايا. لم تعد العصافير، ولا حيوانات الأبسوم أيضًا. تحوّل كلُّ ما كان عشبًا أخضر في وقت سابق إلى بِرَك سرحت ومرحت فيها العلاجيم والجعور. حلّ مايو ولم تتوقف الأمطار. في تلك الأثناء، كان العرزال قد فقد سقفه والتهمت الفطريات النجوم المنحوتة على جدرانه.

بدأت العاصفة الكهربائية ذات مساء قبل وصول أبي. بدت من شدة قوتها كأنها تُطلق رصاصًا. اختلج نور السماء بغضب، وتأوّهت قراميد الطمي من سياط الماء. اكتسى كلُّ شيء بالبياض والارتباك من كثرة الضباب. وقع الانفجار الكبير حين سقطت صاعقة فوق شجرة الجوافة، فانهارت وهي تجرُّ معها كابلات الكهرباء. دوّى صوت انقطاع التيار في آذاننا وتركنا وسط الظلال المشعشعة، وتشظّت ألواح العرزال الخشبية إلى ألف قطعة وطارت كلها في الهواء.

تصرفنا نحن الأبناء بهيستيرية في ذلك المساء، ومع ذلك عانقتنا ماما وسط الظلام، وهي تحاول أن تُخفي عنّا خوفها هي الأخرى. تلألأت عيناها بالدموع التي حبستها، لكن البكاء رفاهية لا يُمكن للأمهات الحصول عليها في لحظات معيّنة، لهذا قالت إن الشمس ستعود مجدَّدًا. قالت إن الأشجار الصغيرة ستنمو وإنها ستغدو أقوى من تلك التي انهارت. قالت إن بابا سيبني لي بيتًا صغيرًا آخر، حين تزداد غلاظة أفرعها.

قالت إننا سنستخدم ثمارها في صناعة الـ"بوكاديو" والمربي والـ"خاليا". قالت أمورًا كثيرة.

لكن هذه الخطط باتت هي والعدم سواء لأن أبي لم يعد، ولا حتى حينما توقف المطر وجفّت البرك وازدهرت زهور الأوركيد؛ ولا حتى حينما رحلت العلاجيم واستعاد العشب نضارته بخُضرة فسفورية تلألأت في الظلام. لم يعد كي يرى أشجار الجوافة الأخرى وهي تحاول أن تنمو بجذوعها الواهنة وفروعها الحائرة التي بدت حطبًا محروقًا على وشك الانكسار. لم يعرف أنّ أوراقها لن تنمو خضراء وإنما ضاربة للصُفرة، إذ نقصتها عناصر حيوية لم تزودها تربتها بها.

أثمرت واحدة منها ثمار جوافة أشكالها غريبة جدًّا. لما فحصناها تبينَّا أن لحمها الرطب والمسوَّد مليء بالديدان. لم نتمكن قطُّ من استئصال هذه الثمار لأنّها كثيرة ونمت بسرعة كبيرة أدّت إلى فناء الشجرة. أشعلنا خشبها كي تحلّق أرْمِدَتها بخفة وسلام بنفس إيقاع رياح سبتمبر التي ترفع الطائرات الورقية الملونة.

حينما أفكر في هذه الشجرة وثمارها الغريبة، أتساءل ما إذا كانت أرمدتها تعرف أنها صارت حرة؛ أتساءل ما إذا كان سقوطها هو طريقتها في العثور على الحرية. مع أن الأجوبة ليست في حوزتي، ومع أنني أشعر أحيانًا بطعم مرٍّ في فمي، فإن يدَي أمي بجلدهما الناشف ستظلان دائمًا تصنعان حلوى

الـ"خاليا" والـ"بوكاديو"، كما كانت الحال ونحن أطفال؛ وكما كانت الحال ونحن نكبر بسعادة تحت ظلِّ شجرة الجوافة العملاقة الأخرى التي عاشت ذات مرَّة في فناء بيتنا وسقطت قبل أوانها، لتُعلِّمنا أنّه حتى أعمق الجذور أو أصلب الأخشاب لا تظلُّ راسخة في مكانها إلى الأبد.

لطالما فضلتُ شوكولاتة "جيت" على كل أنواع الحلوى الأخرى. راقتني إلى درجة أنني تناولت أربعين واحدة منها في يوم واحد. أقول أربعين للوصول إلى رقم تقريبي. أقول أربعين لأن العلبة احتوت في الواقع على خمسين قطعة، ولأنني غالبًا اضطررت إلى مشاركة بعضها مع إخوتي. كما يعرف البعض: لا بُد من مشاركة كل شيء في البيوت التي يوجد فيها إخوة كثيرون، وفي بيتي كنّا كثيرين: سانتي، والتوائم الثلاثة، وماما، وكاتالينا، وأنا.

لا أحتسب بابا لأنه كان قد قُتل للتو. صبرتُ على موته بأكل أظافري واجتثاث جلدها الصغير إلى حدّ النزيف، فبقيَتْ منها جراح امتلأت لاحقًا بقيح دموي. قالت لي خالتي تيتا التي عملت آنذاك في "الشركة الوطنية للشوكولاتة"، إنها ستمنحني علبة كاملة منها لو أظهرت لها أظافري وهي طويلة. ليست علبة تحتوي على اثنتي عشرة قطعة، لا، إنها علبة تحتوي على خمسين قطعة. تصافحنا وعقدنا الصفقة.

بعد شهر من التحلّي بقوة عزم هائلة، وصلت الشوكولاتة، ولأن المرء وهو في سن الحادية عشرة يجهل أمورًا كثيرة، ومن

ضمنها أنه لا يُمكنه أن يأكل علبة كاملة منها في مساء واحد، أُصبت بتسمم الكاكاو.

بدأت الرؤية الضبابية والمتثاقلة أولًا كأن العالم يتحرك بالتصوير البطيء. بعدئذٍ، ازدادت حدة الأصوات إلى درجة أن شجار التوائم الثلاثة الطفولي في الغرفة المجاورة بدا كأنه حرب نهاية العالم، فيما بدا صرير مفصل الحمام، الذي احتاج غالبًا إلى بعض التزييت، كزمجرة حيوان ضارٍّ على وشك الهجوم.

ما جاء بعدئذٍ هو صداع تحملتُه برباطة جأش كبيرة، لأنّ ثمة أمرًا آخر يتعلمه المرء حين يَكثر إخوته ويغيب أبوه، وهو ألّا يشتكي إلّا حين يصبح الأمر مسألة حياة أو موت. هكذا تحمّلتُ قدر استطاعتي إلى أن تحول الأمر فعلًا إلى مسألة حياة أو موت.

وصلت قوة قيئي آنذاك إلى درجة جعلتني أفقد اتزاني وأتمرّغ أرضًا في ما كان في وقت سابق شوكولاتة، وتحول بعدئذٍ إلى مزيج من العصارة والكاكاو غير المهضوم. لما عثرت ماما عليّ، كنت أسبح حرفيًّا في ما قذفته من جوفي، فلفّتني بإحدى مناشف الشاطئ لكيلا تتسخ السيارة وأعطتني وعاء كي أستمرَّ في القيء ونحن في طريقنا إلى المستشفى. استمر عقلي في دورانه بين كل دفقة قيء والتي تليها: سأموت فعلًا هذه المرة. ماما لا تأخذ أحدًا إلى المستشفى من أجل

حماقات. لا بدّ أن تصبح حالة المرء خطيرة جدًّا كي يحدث شيء كهذا.

لم أدخل الطوارئ من قبل إلّا مرتين فقط بسبب الربو. أثار صوت الصفير المنبثق من صدري وأنا أحاول أن أتنفس الخزي، لكنه كان مدعاة للأمل ما دمتُ ساكنة وجهاز الاستنشاق في يدي، وماما واقفة إلى جوار فراشي وهي تجرب أساليبها الخاصة بالإيحاء الذاتي: "تنَفّسي. واحد. اثنان. ثلاثة. تنفسي. واحد. اثنان. ثلاثة. تنفسي". هكذا، حتى صار لون أظافري بنفسجيًّا إلى أقصى درجة، وبدأتُ أتفوه بالتخاريف لأن عقلي لم يعُد يصله أوكسجين كاف. تبين في هذه اللحظة فقط أن جهاز استنشاق "فينتايد" لم يُفدنا منذ فترة، وأن الأمر يتطلب علاجًا محترفًا، كذلك الذي أوشكت على تلقّيه في تلك اللحظة، لا بسبب الربو، وإنما التسمم.

لا أزال أتذكر النظرات المدهوشة للمرضى الذين اصطفوا وانتظروا وهم ناعسون ومتألمون في صالة الطوارئ ذات الإضاءة المشعشعة. أتذكر أيضًا وجه الممرضات وأعينهم التي حدّقت في وعائي الذي أوشك أن يفيض من كثرة امتلائه، وطبيب النَّوْبَة يستجوب ماما:

– لكن، ما الذي أكلته هذه الطفلة بحق الرب؟

أجابته ماما وهي مشدوهة تمامًا:

– اسألها هي، اسألها!

فجأة، انصبّت كل النظرات فوقي أنا ووعائي الملآن بالقيء وردائي المكون من منشفة شاطئية، انتظارًا لإجاباتي.

قلت بصوت رفيع جدًّا:

- دكتور! حدث لي كلُّ هذا لأنني توقفت عن أكل أظافري.

وهكذا، لم أكف عن أكلها: ربَّما لأنني لا أزال أشعر بجزع من موت أبي على الرغم من مرور الزمن؛ أو ربَّما بمثابة فأل جيد لكيلا أتوعك مرَّة أخرى من الشوكولاتة.

ما زلت لا أعرف هل كبرنا حين بدأنا نذهب وحدنا إلى المدرسة، أم إننا بدأنا نذهب وحدنا إلى المدرسة لأننا كبرنا. طلبت كاتالينا إذنًا لتزور أمّها المريضة، وجرت العادة أن ينقلب كل شيء رأسًا على عقب -كلّ شيء فعلًا- كلّما غابت عن المنزل.

لم تقدر أمي على تولّي شؤون النظافة والطبخ والاعتناء بالحيوانات الأليفة والحديقة، وبعد كل هذا هناك مسألةُ أخذِنا نحن الخمسة من مدارسنا المختلفة وتوصيلنا إلى فصول التقوية، ومحاولة الذهاب إلى المتاجر في فترات الفراغ بين كل هذه الأمور، وإلى الساحة لجلب التين للطيور المحاكية وإلى متجر الشارع ١٠ لشراء الماء والكوكا كولا. اشترينا كثيرًا منها إلى درجة أن صاحب المتجر ظن أنّ لدينا مطعمًا، وكلما سأل أمي كيف هي حاله أجابته: "مطعمي مطعم خاسر".

لم نتمكن من الذهاب إلى البيت حتى خروج آخرنا من حصته الدراسية الأخيرة، لأننا سكنّا الضواحي. بعدئذ وجب علينا أن نسلك الطريق السريع، لا من دون أن نعلَق عدة ساعات في تكدسات المساء المرورية الضخمة، وهذا إن لم

توقفنا الشرطة المرورية لتطلب من أمي إبراز رخصة النقل المدرسي. لطالما فقدنا دقائق ثمينة شرحَتْ فيها لهم أنّنا كلنا أشقاء، وأن التوائم الثلاثة لا يمكن أن يتطابقوا، لأنهم ثلاثة توائم غير متطابقين.

وصلنا جوعى ومن دون رغبة في الدراسة، ومع ذلك وجب تحضير العشاء وأداء الفروض، ثم ترتيب الأطقم المدرسية، فإدراك أنها مجعدة وغير مغسولة وأن الأحذية الرياضية لم تجف. هكذا، اضطررنا إلى أن نفسح لها مساحة وراء الثلاجة وأن نضعها هناك كي تنشف ليلًا. بهذه الصورة، تيبّسَتْ وأصابتنا بالثآليل التي لم يعالجها أحد لنا لاحقًا.

أنهك اليومُ الجميع، وبالأخص ماما. تزامنت الليلة التي اتصلت فيها كاتالينا لتقول إنها ستتأخر خمسة عشر يومًا على الأقلّ، مع عرض قدمه أحد جيران مزرعتنا بتوصيلنا إلى المدرسة، ولأن جارنا هذا لديه ابنان، وجب علينا -نحن الأطفال السبعة- أن نجد لنا مكانًا داخل سيارة واحدة. جلسنا متلاصقين جدًّا إلى درجة اضطرارنا إلى عقد أذرعنا وسيقاننا لشغل أقل مساحة ممكنة. صار التخطيط الجيد واجبًا لكل تمخّط أو تثاؤب، وبالمثل مزامنة إيقاع تنفسنا وأن نمسك بأيدينا كلَّ شيءٍ ضروري لكيلا يبذل أحدنا جهدًا كبيرًا للبحث عنه داخل حقيبته. مع ذلك، لم يكن التلاصق أسوأ شيء بالنسبة إلينا، وإنما معرفتنا أننا نزعج الطفلين الآخرين اللذين نظرا إلينا وهما مرتعبان، ونحن نَدْهَم السيارة بحقائبنا، وعلب طعامنا،

ونماذجنا المصغرة، ولوحاتنا المصنوعة من الورق المقوّى، وكراتنا، ومضاربنا وأحذيتنا الرياضية، ضمن أشياء كثيرة أخرى. في بعض المرّات جاء التوائم الثلاثة وهم يمسكون في أيديهم إما بإفطارهم وإما بأحذيتهم التي لم تجفّ بعد. كنّا أغلبية مزعجة، وحشدًا من الغزاة.

اكتشفت بعد أول مرَّة أوصلنا فيه جارنا إلى المدرسة المعنى الحقيقي لأن تصل متأخرًا. عانيت قبلها من التأخر بضع دقائق فقط، لكن الآن بات الأمر شأنًا حسّاسًا فعلًا. يتطلب امتلاك عذر يومي للتأخير قدرًا هائلًا من الإبداع. مع ذلك، مثّلت مساعدة الجار متنفسًا ضخمًا لماما، ومن فرط ضخامته تجرأتْ بعد بضعة أيام على الإعلان التالي:

بداية من الغد، ستذهبون بمفردكم إلى المدرسة؛ أنا منهكة جدًّا وأنتم كبرتم جدًّا.

ذهبت لأنام وأنا مقتنعة بأنها ستنهض، لكن على أي حال ضبطتُ منبّهي، تحسّبًا للعكس. حينما رنّ، أدركت أنني مخطئة. علمتُ أن الوقت قد دهمنا، حينما شعرت بهدوء لا يليق أبدًا بأصباحنا. سُمع تواثب الطيور المحاكية داخل أقفاصها على امتداد الرواق، مع الدوران الأبدي الهادئ للسراخس المتدلية من أروقة البيت.

نهضتُ وأنا أقفز وذهبت لإيقاظ إخوتي، ولأنهم لم يستيقظوا في الوقت المناسب؛ استهلكتُ الماء الساخن كله،

وهكذا تشاجرنا: أنا؛ لأنهم لم يستيقظوا ومن ثم سنصل متأخرين إلى المدرسة، وهم، لأنهم اضطروا إلى الاستحمام بماء بارد، أو لأن هذا هو ما قالوه لي على الأقل. لم أتيقن من الأمر. بعد تخطي موضوع الاستحمام، تلته مسألة اختيار الزي المدرسي. لم يعرف أحد هل هو يوم الزي الرياضي، أم هل عليهم ارتداء قميص المناسبات الأبيض أم القميص الأحمر اليومي أم أنه القميص الأخضر أم الأزرق أم الأصفر. لا أعرف من الملعون الذي خطرت له فكرة وجود خمسة ألوان للقمصان في نفس المدرسة، فمثل هذا الأمر لا يُؤدي إلّا إلى الارتباك. إنها فوضى متكاملة انتهت باختيار القمصان بصورة عشوائية بحتة، في ظل هامش الخطأ المرتفع الذي يعنيه هذا الأمر. بعدئذٍ، ذهبنا إلى طاولة غرفة الطعام، حيث لم نجد الشوكولاتة الساخنة أو الـ"أريبا" مع الزبدة، أو الخبز المحمص أو الجبن الطازج أو عصير البرتقال المعصور للتو، على عكس بقية الأيام.

حاولتُ تولي السيطرة آنذاك، فأمرت أحد التوائم الثلاثة بجلب البرتقال وآخر بعصره، وبدأت أقلّب فطائر الـ"آريبا" ووضعت الخبز في الفرن. لم يعرف مَن تولى تحضير الشوكولاتة أن الحليب الذي يضعه المرء ليغلي فوق الموقد يُدرك متى لا ينظر إليه ويفور في تلك اللحظة تحديدًا. أدركَ الخبز الموضوع في الفرن، والـ"آريبا" وهي فوق المشواة الأمر ذاته، وصار كلٌّ منهما أسود كقطع من الفحم في نهاية المطاف.

أحرقتُ أصابعي وأنا أحاول إنقاذ ما تبقى من الخبز والـ"آريبا"، لكن ألمها الحارق توقف فجأة، لما اخترت اتباع النصائح الحكيمة لماما بعدم التفكير في الأمر.

في النهاية، لم يسعفنا الوقت لنحمص مزيدًا من الخبز، فهجمنا على القطع الباردة الباقية في الثلاجة. لم نتمكن من إضافة الزبدة عليها لأنها مجمدة؛ ولا الجبن الكريمي لأن شخصًا، لم نُحدد هويته، تركه خارج الثلاجة ووجدناه سائحًا لما استيقظنا. أسوأ شيء في وجود أبناء كثيرين في بيت واحد عدم وجود طريقة للعثور على المذنب الحقيقي، وأفضل شيء أنه لو كان المرء مذنبًا، فمن المحتمل جدًّا ألّا يكشفه أحد.

لما فار حليب الشوكولاتة فوق الموقد، ارتضينا بعصير البرتقال، إذ اقتنعنا بأن عصير البرتقال المعصور للتو شيء واعد على الدوام، لكن لما ذقناه وجدناه مُرًّا لأن المسؤول عنه اختلط عليه الأمر بين ثمار البرتقال والليمون. عمت الفوضى. تشاجرنا وضحكنا فضايق بعضنا بعضًا ثم ذكَّر كلٌّ منا الآخر بأننا سنصل متأخرين إلى المدرسة وبدأنا نتشاجر مجدَّدًا.

لطالما وصلنا متأخرين إلى المدرسة. ما من طريقة لتفادي الأمر. لم يصنع فارقًا أن نُبكّر باستيقاظنا نصف ساعة أو ساعة أو ساعتين، إذ حدث دائمًا أمرٌ ما يمنعنا من الوصول في موعدنا. إنها مسألة محبطة جدًّا. قلت لنفسي دائمًا إنني حينما أصبح قادرة على التنقل بمفردي من دون الاعتماد على أحد، سأكون أول الواصلين إلى كل الأماكن.

كرهت الدخول إلى الفصل وأنا أشعر بالنظرات الصامتة للراهبات ونظرات زميلاتي وهن يحدقن إليّ. كانت قد مرت فترة طويلة منذ أن نفدت مني الأعذار المبتكرة مثل الازدحام المروري على الطريق السريع، والإطار المثقوب، وصفِّ رسوم المرور. لقد بدت الأعذار الحقيقية سخيفة جدًّا إلى درجة شعوري بالأسف من قولها: "اضطررنا إلى النزول للاستحمام في الجدول لأننا حين استيقظنا لم نجد ماء". "تسبب إعصار اليوم السابق في تغطية المسار بالطمي وانزلقت العربة على الطريق المنحدر، فعلِقت على جانب الطريق". "بالتزامن مع خروجنا بالضبط، فقست خمس عشرة بيضة". "ذهب الحصان إلى البركة وكدنا أن نفشل في إخراجه". "استيقظنا ووجدنا البيت مليئًا بالنحل". "أصيب كبير الخدم بنوبة صرع وكاد أن يقتلع لسانه من جذوره بعضّة واحدة". "اضطررنا إلى العودة في منتصف الطريق لأن أخي لم يرتد حذاءه". "تعرضت خزانة الأطعمة لغزو من النمل". "أوقفَنا شرطي المرور مجدَّدًا لطلب رخصة النقل المدرسي".

بينما نحن غارقون وسط هذه الضوضاء، شعرنا فجأة بقفل باب ماما يتحرك، والمقبض وهو يدور، والباب نفسه وهو ينفتح. غرقنا في صمت يكاد أن يكون صوفيًّا، كأن الرب نفسه قد نهض ليُساعدنا.

شعرنا بخطواتها الخفيفة وهي تهبط فوق درجات السلالم داخل رداء نومها الرقيق ذي اللون السحابي، الذي لطالما

استيقظَتْ وهي ترتديه. شعرنا بطقطقة كل درجة تحت صندلها الجلدي. شعرنا بمسيرتها الأثيرية غير العابئة بشيء نحو المطبخ، وبنظرتها وهي تخترقنا بنفس الصورة التي تخترق بها أشعة الشمس النوافذ، وبِصَمتها الذي لم يقل لنا شيئًا وقال لنا الكثير في نفس الوقت. تمسّكنا بأمل أن تقدم لنا ماما العون في تجهيز الإفطار، وكأننا جهلنا فعلاً أن الرب لا يعين المرء أبدًا في تحقيق أي شيء. على أي حال سيكون هناك متسع من الوقت مستقبلًا لشيء شديد الدنيوية كفقدان الأمل.

أخرجتْ ثمرتَي تين من الثلاجة وقطعتهما إلى شرائح دائرية بدقة شديدة، وتأكدت من أن كل شريحة تُشبه سابقتها. فعلتْ نفس الشيء مع الموز، ثم اقتربت وهي تُصفر من قفص الطيور المحاكية ورفعت الغطاء الذي يحميها من تيارات هواء الصباح الباردة. وضعت شرائح التين والموز الدائرية داخله، وهي تصفر. وضعت الماء الجديد، الذي أضافت له نقاط الفيتامين، وهي تصفر. ملأت الأوعية بكمية هائلة من الحبوب، وهي تصفر، ثم غسلت علب الصفيح بالماء والصابون ولفّتها بورق الجرائد.

بدونا مثل خمسة أحجار تراقب المشهد. لم يقل أحد شيئًا. نظرت إلينا الطيور المحاكية من بين القضبان ولم تتوقف عن التجاوب بتغريدها مع صفير ماما. لما فرغتْ من تجهيز إفطار الطيور، استدارت وصعدت السلالم بنفس الصورة البطيئة

التي نزلتها بها. أغلقتْ الباب. وضعت سلسلة القفل وشعرنا بطقطقة فراشها الذي عادت لترقد فوقه.

لم تستيقظ أمي بعدئذٍ قطُّ لتوصيلنا إلى المدرسة. بالنسبة إلى الطيور المحاكية، لا يُمكنها أن تشكو من شيء. لم ينقصها التين أو الموز أو الحبوب أو الماء مع الفيتامينات. لم تقدم لنا الفيتامينات قط. ذات مرَّة، حين سألتها لماذا تقدم الفيتامينات إلى العصافير ولا تقدمها إلينا، قالت لي: "كلوا جيِّدًا".

عادت كاتالينا بعد خمسة عشر يومًا، فتعلقنا نحن الخمسة بها كموز يتدلى من سباطة. لم نتوقف عن تقبيلها ومعانقتها وجعلناها تعدنا بأنها لن تتركنا أبدًا. مع ذلك، استمررنا في الوصول متأخّرين إلى المدرسة. الفارق أننا أصبح لدينا من نُلقي بالذنب عليه.

لطالما بدأ اختناقي نحو الساعة السادسة. اعتدت أن أشعر بوتد يقف في حنجرتي. إنه وتد هائل يمنعني من ابتلاع لعابي ومن التنفس. وتد بدا أنّه يتمدد، كلّما تقدم الظلام. لقد أخضعني، وهيمن عليَّ، وكان أكبر مني. لم أقدر على الدراسة أو التركيز. تزايدت نبضات قلبي بمرور الوقت. كان قلبي عضوًا صغيرًا يدافع عن نفسه ضد شيء شديد الضخامة، ومجرّد جدًّا ولا اسم له، فتسألني ماما: "ما الأمر؟"، لكنني لم أعرف ما الذي يحدث. احتجت إلى الهواء، لكنني لم أتمكن من تنفسه. ليس الربو. لا. اختناق الربو مختلف جدًّا، ومحدد ويمكن تفسيره بصورة أكبر، ويهدأ بجهاز الاستنشاق في كل المرات تقريبًا. عرفت هذه المسألة تمام المعرفة. اضطررنا إلى أن ينظر كلٌّ منا إلى وجه الثاني عدة مرات، ومع أننا لم نرُق بعضنا، فقد ظللنا معًا. أنا لأن وجوده يعني الحصول على اهتمام ماما؛ والربو لأنّه لم يتوقف عن التنكيل بي بين الحين والآخر، لسبب لا يعلم أحد كنهه.

ظهر الوتد يوميًّا. تنوعت حدته وكانت مدته غير محدودة. كلّما وصلت عقارب الساعة إلى السادسة والنصف، وجدت

نفسي أرتعش وسط عرقي البارد وأنا في حالة سيئة. لم أعرف كيف ومتى بدأ يحدث الأمر لي. لم أعرف في أي لحظة بدأت أخشى الليل بمثل هذه الصورة؛ هذا الليل الذي يعلن عن نفسه من السادسة، وفي السابعة تصبح له الغلبة.

كان الليل وحشًا يرغب في ابتلاعي من مرَّة واحدة، أو -من يعرف- ربَّما ودّ أن يمضغني، ليجعل احتضاري أبطأ. ربَّما سأنام مع أمي، لأن ثمة مساحة فائضة في الجانب الأيمن لفراشها. إنها المساحة التي ظلت خاوية آنذاك واحتفظَتْ فيها المرتبة بشكل جسد أبي ورائحته ووجوده غير المرئي. ظل حذاؤه المنزلي ساكنًا في مكانه والتراب يتراكم فوقه في ركن الغرفة. تعلن الساعة الموجودة فوق الكومود عن الوقت بأرقامها الحمراء اللامعة ولا يتردد صوت الراديو الذي اعتاد أبي أن يتركه مفتوحًا.

ودّ الليل أن يبلعني وأنا وحيدة وعزلاء في غرفتي، بينما أفكر هل سينزعج بابا لو شغلتُ مكانه في الفراش. سيعني هذا الأمر الاعتراف برحيله، وفقدان كل أمل في عودته. كنت متأكدة من أنه لن يعود، ومع ذلك لم أتوقف عن انتظاره. تخيّلت حذاءه الساكن في ركنه الدائم؛ تخيلته يشتاق إليه وهو يرتديه. أفترض أن المرء يحتاج إلى الوقت للاعتياد على فكرة الأمور المحسومة.

ملأني حلول الليل بالجزع. كان دقيقًا كساعة الأرقام الحمراء التي ظلّت بلا حراك فوق الكومود. بدأت أقلق

بالصورة التي يقلق بها المرء من الأشياء التي لا يُمكن تفاديها. أضأت كلَّ أنوار البيت. كلِّها! إنها اثنان وستون مصباحًا. لقد عددتها أكثر من مرَّة، لكن ماما أغلقتها دائمًا وهي تدمدم من ارتفاع الفواتير. توقفَتْ عن تغيير ما توقف منها عن العمل، ولهذا بات البيت في النهاية غارقًا دائمًا في الظلال المشعشعة.

لطالما صرخ فيَّ إخوتي: "خوافة!". إنهم محقّون. لطالما كنت واحدة من الخوافين الذين يحتفظون بمصباح في أياديهم، وأبقيت الصليب الخشبي الذي منحوه لي في مناولتي الأولى معلقًا فوق فراشي. كنت واحدة من هؤلاء اللاتي يخطّطن ما الذي قد يفعلنه لو جاء شيطان ونظر إليهن من النافذة. مجرد خوافة لا علاج لها ستتذكر في كل لحظة فيديو طرد الأرواح الملعون الذي شاهدته بأمر من راهبات المدرسة؛ أو ذلك الآخر الخاص بعمليات الإجهاض غير القانونية الذي ظهرت فيه سلة مهملات تراكمت فيها قطع من أجنة، بقطرات الدم التي سالت وشكّلت بركًا على الأرضية القذرة لأحد البيوت الحقيرة. خوافة ساذجة ظنت أن الشيطان قد يتلبسها لو تمارضت لكيلا تذهب إلى القداس. خوافة، ومع ذلك مدمنة للخوف، إذ عجزَتْ عن التوقف عن مشاهدة أفلام هيتشكوك في الخفاء، على الرغم من معرفتها أن ستدفع ثمنًا غاليًا لما اقترفته، مع حلول الظلام.

الليل وحش جائع قادر على ابتلاع الشمس ولا شيء يُشبع جوعه، ولهذا التهم الجبال الواقعة أمامنا وشجرة الأروكاريا

وأشجار الغار، كأن تجرُّؤَهُ على ما أقدم عليه لم يكفه. التهم أيضًا أشجار صبّار سان بدرو، لكن هذه لم تهمّني كثيرًا. لم ترقني أشواكها. لطالما صبغ الليل الغيوم بالسواد؛ تلك الغيوم التي أظهرت قرب نهاية المساء وهجًا برتقاليًّا شديدًا، شقّ على المرء أن ينظر إليه من دون أن يقطّب جبينه. حتى الطيور، لم تنج منه بدايةً من المطاميط المتوّجة الزرقاء وصولًا إلى التناجر بألوانها التي تصل إلى ألف لون. لقد ابتلع كلَّ هذا. لم تنج سوى البومات المختبئة وسط أشجار الغار، وهي تطلق نُذرها المشؤومة طوال الليل بذلك النعيق المغموم الذي لا يُبشر بالخير.

ينام الجميع قرب منتصف الليل وأبقى بلا حراك في فراشي، انتظارًا أن يأتي دوري ليلتهمني. تحدّق عيناي في السقف وأعقد أصابعي كي ينجح نور غرفتي في إبعاد الليل. لو امتلكت المال آنذاك، لأضأت كل الأنوار ودفعت بنفسي فاتورة الكهرباء. ما هي تكلفة إضاءة الليل؟ لم أعد قادرة على إقناع أيٍّ من إخوتي بالنوم في غرفتي. "أنتِ لا تتركين أحدًا ينام بهذا النور المضيء". "تتقلبين طوال الوقت كأنك دجاجة حاضنة". حفظت كلّ كتب المكتبة، حتى تلك البعيدة عن فهمي، وتلك التي لم ينبغ عليَّ قراءتها.

فعلت أمرًا آخر وهو دراسة مخارج الطوارئ المحتملة من غرفتي، لكنني لم أجد منفذًا للهرب. لو أنني قدرت على الأقل على خلع قضبان نافذتي، أو صناعة حفرة في الأرض تصل

إلى الجانب الآخر من العالم في دولة تُشرق فيها الشمس في وقت أسرع... لو أنني قدرت على أن أصبح خفيفة، خفيفة جدًّا لأتمكن من الطفو وفقًا لهواي والهروب بسرعة الأشباح... لو أنني قدرت على تعلم الاختفاء لتجنُّب أن يتلبّسني أحد الشياطين؛ أو على أن أرحل إلى هذا المكان الذي ظهر ذات مساء في الأخبار والذي لا تُظلم سماؤه طوال فترة طويلة من العام...

لم يبق لي إلّا الصراخ. قدرت رئتاي على الأمر، لكن غرفة أمي استقرت بعيدًا جدًّا بقدر بُعد ذلك المكان الذي افترضتُ أن الشمس قد أشرقت فيه فعلًا، أو ربَّما أن صوتي استمر في خيانتي في أشد الأوقات التي احتجته فيها. بقيت خرساء. خرساء وبلا حراك ومرعوبة وأنا أفكر في المساحة الخاوية على الفراش التي كانت لأبي ولم يعد أحد يشغلها. سمعت ضوضاء داخل خزانة ملابسي. ربَّما مردها انفتاح مدخل من بُعد آخر كمرآة أليس*، أو قد تكون روح ميت تحاول العودة إلى هذا العالم. لطالما رجوته: "بابا. لا تظهر أمامي". "لا تظهر أمامي. لا تظهر أمامي. لا تظهر أمامي". كررت هذه العبارة كأنها تعويذة "مانترا" وأنا أسمع قرقعة القراميد الفخارية فوق سقف البيت.

كان الليل أبديًّا كساعتي التي لفت ودارت من دون أن تحدّد أي توقيت: تيك تاك. تيك تاك. راقبتُ حركة العقارب، لكن

(12) * المقصود شخصية أليس في بلاد العجائب. (المترجم)

كلَّما أمعنت نظري فيها، وجدت أنَّ دقيقة واحدة لم تمر منذ آخر مرَّة نظرت إليها. لم أود أن أنظر إلى السقف أكثر من هذا. لم أود أن أعرف ما هي الساعة، ولهذا اعتدت أن أضع رأسي أسفل الأغطية، كأن هذا سيجعل الوقت يمر أسرع، كأن مجرد غطاء قادر على إبقائي في مأمن من كل الأشياء السيئة، لكنني افتقرت سريعًا إلى الهواء. ملعون هو الليل! خانق جدًّا! قامع جدًّا ولا يطاق، كمعاناة المرء من الربو ونسيان جهاز استنشاقه فوق طاولة المطبخ.

تحالفَ الليل أحيانًا مع الرياح، فصارت الظلال حية. تردد صفير الرياح بعنف على امتداد الأروقة، ودار ألف شيطان فوق بلاطها بأعين لامعة مستديرة. كلَّما ازدادت قوة الرياح، ضربت بقوة أكبر الجدران وأُطر الأبواب. مَن الملعون الذي خطر له بناء بيت يضم فناء داخله؟ لطالما امتلأ في موسم الأمطار بالعلاجيم التي ارتطمت بعدئذٍ ببابي. أصرت الحشرات، كلها، على أن ترتطم بحماقة بالمصابيح المضيئة، وامتلأت كل الأنحاء بفراشات سوداء. ربَّما مسألة أنها نذير موت صحيحة.

كل هذا وأنا مستيقظة وأفكر في ما إذا كان أحد آخر سيموت، أو في أنّ لديَّ في اليوم التالي فصلًا في الجبر، وأنني عوضًا عن التركيز في كتاب بالدور*، سيجب عليَّ أن أصارع لكيلا يرشق رأسي الناعس في الدكة. بعدئذٍ، ستأتي لعبة الـ"سوفت

(13) * كتاب جبر تعليمي يُستخدم في أغلب دول أمريكا اللاتينية من تأليف عالم الرياضيات الكوبي أوريليو بالدور. (المترجم)

بول" ولن أتمكن من ركل شيء. لو استمر الوضع هكذا فلن أمسك كرة واحدة، وسيحرمونني من شغل مركز لاعبة القاعدة الأولى. "مسكينة؛ لا بد أن السبب مسألة أبيها". هذا هو ما سيتهامسن به في الفريق من وراء ظهري.

إنها هذه الهمسات. أو ربَّما هو جهاز الاستنشاق المنسي فوق طاولة المطبخ. ربَّما هما الأمران معًا. أو ربَّما هي غريزة البقاء المحضة؛ المهم أنني استيقظت ذات ليلة في الظلام وأنا عازمة على ألّا أُشغل مصباحًا واحدًا وألا أستخدم كشافًا، وألا أعلِّق أي صليب فوق فراشي. اختنقتُ في تلك الليلة من الربو. احتجت إلى جهاز الاستنشاق بأي ثمن. سرت ببطء. اضطررت إلى السير إلى جوار كل هذه الشياطين المتشبثة بمكانها في وسط الرواق. "تنفسي. واحد. اثنان. ثلاثة. تنفسي. واحد. اثنان. ثلاثة. تنفسي". تخيّلت أمي وهي تقول لي هذه العبارة، لأنّ هذا هو ما كانت تقوله لي كلّما عانيت لاستنشاق الهواء.

بدأت أرى كلَّ شيء بوضوح، على الرغم من الظلام: الشياطين ليست سوى السراخس التي لفت ودارت مع مجيء وذهاب الرياح، وانعكست ظلالها بوضوح فوق البلاطات وتشوَّهت على امتداد الجدران. قرقعت القراميد بسبب مشاجرة القطط البرية التي تتواثب منذ قديم الأزل فوق أسقف البيوت. نظرت إليَّ عيونها المستديرة لما شعرت بوجودي. لمعت كأن ضوءًا داخلها. ربَّما ما دوَّى صوته داخل خزانة ملابسي مجرد

جرذ يختبئ من كل هذه القطط الجائعة، أو علجوم يحاول أن يهرب. في الخارج، تردّدتْ صرصرة الجداجد.

وصلت إلى المطبخ وعثرت على جهاز الاستنشاق. استنشقت منه ثلاث مرات. لا حاجة إلى حمل الصلبان، وإنما ما يحتاج المرء إليه. ليتبارك الـ"فينتايد"! ضممته بيديَّ إلى صدري. كان لا يزال صفيره مستمرًّا في محاولته لإيصال الهواء إلى الرئتين. لا أعرف لمَ تمكنت من الرؤية جيدًا، رغم أن كل الأنوار كانت مطفأة. لعبتْ هبَّة هواء بشعري. ترك أحد ما باب المطبخ الجانبي مفتوحًا. هذا ليس أمرًا غريبًا. لم نغلق أيّ باب في بيتنا قط. على الإطلاق! ولا حتى الباب الرئيسي! إنها أبواب كثيرة وتطلب منا التعرف على المفاتيح وقتًا طويلًا، إلى أن ضاعت كما يضيع كل شيء لا يُستخدم.

سرت نحو الخارج، بتمهل، بعد أن جذبتني حركة الأغصان وتلألؤ اليراعات. لا أعرف هل ارتعدت من الخوف أم من البرد. رأيت أشجار الغار وشجرة الأروكاريا والجبل الواقع أمامنا. رأيت شجرة صبار سان بدرو المزدهرة، وبدا لي مذهلًا أن ينبثق من شيء شائك كهذا كل هذه الزهور. ذات يوم سأخرج لأتأملها من دون خوف، من دون ربو. لكن هذه مسألة لم أكن أعلمها بعد.

لم يبتلع الليل العالم. ظلّ كل شيء في مكانه، بما فيه أمي، التي ظهرت فجأة إلى جواري. لقد نزلت إلى المطبخ لما أحسّت بالضوضاء. سألتني، كما هي العادة، ما الأمر؟ إنها

أمور كثيرة لم أتمكن من أن أقول لها واحدًا منها. صعدنا ببطء نحو غرفتها لأن الربو لا يستدعي التسرع. عجزتُ عن التنفس تقريبًا، لكن يدي كانت في يدها، وبما أن يدي كانت في يدها، فسواء مع الربو أو بدونه، صرت قادرة على الذهاب إلى نهاية العالم.

راقبت الكيفية التي جهزتْ بها جانب أبي في الفراش بثلاث وسائد، لأنه حينما يعجز المرء عن التنفس عليه أن ينام وهو شبه جالس. وضعتني في هذا الجانب من الفراش، الذي كان له طابع مقدس ولا يمكن لمسه تقريبًا. سأنام هناك قرابة العامين، لكنني في تلك اللحظة عجزت عن التكهّن بأنني سأحظى بهذا الشرف. ما علمته في تلك الليلة هو أن أبي لن يعود، وأن الأمر الوحيد المحسوم في حياتي هو غيابه. ستتغير مخاوفي، وعللي وشياطيني وأولوياتي. سيتغير كل شيء، إلّا موضوعًا واحدًا: لقد مات أبي. لقد مات. استمر الراديو صامتًا في مكانه فوق الكومود، وهو مضبوط على الإذاعة التي اعتاد أن يستمع إليها، واستمر تلألؤ ساعة الأضواء الحمراء، من دون انقطاع، في كل الليالي.

مع مرور الأيام، لم أعد أرى الحذاء المترب، لكنني لم أتجرأ قطُّ على السؤال عن هوية من أخذه. في نهاية المطاف، لم يعد أبي يحتاجه. لن يرتديه بعدئذٍ أبدًا.

كنا غاضبين. تشاجرنا بقبضات أيدينا وشدَّ كلٌّ منا شعر الآخر. ثمة مرات، صرنا فيها عُصبة حيوانات متوحشة يترصد بعضها بعضًا بين الأشجار أو فوق سقف البيت. وفي مرّات أخرى تحولنا إلى رجال عصابات، فقتل بعضنا بعضًا بمسدسات خيالية: طاخ! طاخ! طاخ! هكذا دوّت الطلقات قبل أن تفترش أجسادنا العشب بلا حراك.

كنا هائجين. ألقينا الحجارة على برك مجرى الجدول. لاحقنا الدجاج. أشعلنا بؤرة نار ولففنا ودرنا حولها بصخب مثل الهنود وهم يستحضرون المطر لتخفيف الجفاف. شكّلت الطناجر الضخمة التي غلت فيها أمنا الحليب المحلوب للتو طبولنا. تسابقنا في الجبل لمسافات مرتفعة، مرتفعة جدًّا، حتى قمته. لطالما وصلنا ونحن نلهث وفي شدة الإنهاك إلى درجة أننا عجزنا عن التحدث فيما بيننا، فاعتدنا أن نرقد للراحة ونحن نبحث عن أيّ أشكال موجودة في السحب والهواء يتلاعب بشعر كلٍّ منا. بعدئذٍ، يتذكر واحد من خمستنا أسباب هياجنا، فنقف عند حافة المرتفع الصخري، ونسحب نفسًا من الهواء، ونصرخ. وددنا أن نتحقق مَن منا صاحب أقوى صرخة. فاز بابلو دائمًا، بناء على قوة صدى صوته.

شعرنا بالملل. تخطت ألعابنا كل الحدود. لو سار أحد عند حافة المسبح أو حافة الجدول، دفعناه. حلمنا بالعيش تحت الماء حيث لا يقدر أحد أن يُلحِق بنا أيَّ أذى. تنافسنا في مسابقة من يُمكنه أن يكتم أنفاسه أكثر من الآخر. ظننّا أنفسنا أسماكًا. كنّا أحرارًا جدًّا وشديدي الخفة، ولم نعبأ بشيء إلى حد انقطاع أنفاسنا. اعتدنا بعدئذٍ أن نُخرج رؤوسنا من الماء بعنف، فإذا بنا نعود إلى الواقع، ونجد أن شيئًا لم يتغير على الإطلاق.

تبادلنا الشتائم والتحدّي وضرب بعضنا بعضًا. بات إظهار من يتحمل قدرًا أكبر من الألم من دون أن يشكو أمرًا واجبًا. نحو الثانية ظهرًا، وبلاط الفناء مشتعل، اعتدنا أن نلعب لعبة الوقوف عليه بأقدام حافية، فيبقى من يقدر على تحمّلها لأقل وقت تحت أمر الآخرين طيلة أربع وعشرين ساعة. عُوقبت الهشاشةُ بقوة. أحيانًا كنّا أسيادًا، وفي مرّات أخرى، عبيدًا. تبادلنا الإهانات، وقف كل منا فوق الآخر، وددنا أن يدوس بعضنا بعضًا.

كلما خرجت الأمور عن السيطرة وانزعج بعضنا من بعضٍ فعلًا، انتهى المطاف بنا وكلٌّ منا يلقي على الآخر أغراضًا: أحذية، أو ترابًا، أو حجارة أو أيَّ شيء في متناول أيدينا. أكبر شيء تفاديته كان قفلًا. أخطر شيء ألقيته، حفنة من الرمال استقرت في عينَي من أمامي. ثمة مرّات كثيرة استخدمنا فيها أوراق أشجار القراص كأسلحة. يكفي فقط أن تلمس أوراقها

القارصة جلد المرء لتُولِّد حرقة والتهابًا. وضع كلٌّ منا للآخر أيضًا علاجيم داخل حقيبة مدرسته، وفتّت كل منا قطع الخبز المحمص على فراش عدوه، الذي تغير بالتناوب، كي يمتلأ بالنمل. عاش البيت ملآن بها. لطالما اضطرت ماما إلى وضع الطعام داخل وعاء داخل وعاء آخر ملآن بالماء، ومع ذلك، تشابك النمل بسيقانه، فشكل جسرًا سمح لبقيته بالسير فوقه للوصول إلى الطعام. وجب علينا أن نراقب النمل. لقد عرفتْ كل نملة كيفية العمل في فريق، والاتحاد من أجل تحقيق أهدافه. نحن، على النقيض، استسلمنا. في نهاية المطاف، صار كل ما نتناوله ملآن بالنمل. أعرف جيدًا طعمه اللاذع.

كنا متهورين. اضطرمنا من الداخل. بكينا بمفردنا وفي صمت لكيلا يسمعنا أحد. أخفينا ألمنا كما تخفي الحيوانات الجريحة ألمها لكيلا يلفظها القطيع. لطالما فرشنا مراتبنا فوق النجيل في الليالي التي لم يظهر فيها القمر، وانتظرنا الشهب لنخبرها برغباتنا. أعرف أننا طلبنا منها دائمًا نفس الشيء. لكن كلّ شهب العالم لا تكفي لإحياء الموتى. لم نتحدث مع أحد عما نشعر به.

وددنا أن نتغلب على الخوف، لكننا لم نعرف كيف تحديدًا، فبدأنا حينذاك ننزلق بدراجاتنا الهوائية أو بأحذية تزلجنا فوق الرُبى المنحدرة، ومنعْنا استخدام المكابح. سقطنا وخدشنا أنفسنا وانكسرنا وطارت منا أسنان كثيرة. تعلمنا أن نعالج جراحنا بأنفسنا باستخدام "أيسوداين" و"سولفاكول". لم نبلغ

ماما إلّا بإصاباتنا الخطيرة فقط، وقالت لكل منا دائمًا: "لا- تفكر- في- هذا- الأمر". احتجنا إلى أن نصبح أقوياء، وغير قابلين للقهر، وقساة -قساة جدًّا- لكيلا تتمكن أي رصاصة من اختراق أجسادنا. انبثق لكل منا درع سلحفاة في ظهره واحتمينا به كلّما شعرنا بالتهديد. بتنا نعرف أن الحياة هشة، وأنها قد تضيع من المرء في ظرف لحظة. لم نرد أن نكون سهلي الانكسار.

كبرنا. كنّا متطلبين. كنّا لحوحين. لم نعرف ما الذي نريده، لكننا أردنا المزيد. القليل منه دائمًا. أردنا الانتباه. أردنا الاهتمام. أردنا الحب. أردنا عودة بابا. كانت ماما هي بابا وماما. أرادها كلٌّ منا لنفسه. لم نستعد لتشاركها معًا. تخاصمنا. صارعنا من أجلها، فاستهلكناها. وصل وزنها إلى اثنين وأربعين كيلو، ومع ذلك، قدرت على جز الحشائش، وتنظيف المسبح، والتعامل مع مشكلات ومتطلبات الجميع. بدا الأمر كأنها لا تتعب أبدًا. ظننا أنفسنا أقوياء، لكن ماما كانت الشخص الوحيد القويَّ في البيت. لو أن القوة مادة دراسية، فقد حصلتْ فيها على درجة مرتفعة جدًّا. لم يقدر أحد على التفوق عليها.

ابتعدتُ عن العُصبة، حينما تجلى ضعفي البدني. لم أعد قادرة على الفوز بأي شجار. فهمتُ ما يعنيه أن يعاني المرء من نقيصةٍ، وأن التساوي المفترض بين الرجال والنساء مجرد كذبة. اتسعت الفوارق بيننا بصورة هائلة. لطالما رغبوا في المزيد والمزيد، وصرت أنا فجأة أرغب في الأقل: في هياج

أقل، وغضب أقل، واهتمام أقل. صخب أقل، وصراخ أقل، وفظاظة أقل.

مع مرور الأيام، ازداد شبهي بأمّي قليلًا. صرت رائقة وهادئة ومنعزلة. راقبنا الضوضاء معًا من دون أن ننطق كلمة واحدة، لأننا بتنا نعرف أن الصمت يُحير أكثر من التوبيخ وأن الخروج عن السيطرة لا يُمكن مكافحته بالصراخ. لطالما جلسنا في أصعب اللحظات فوق درجات السلم الحجرية لنأكل اليوسفي والتفاح. بصقنا البذور لنرى مَن منا ستوصلها إلى مسافة أبعد. تحدثنا في بعض المرّات، وفي مرّات أخرى لم نتحدث، لكننا تفاهمنا دائمًا. قضينا أمسيات كاملة داخل الدفيئة ونحن نضع السماد لزهور الأوركيد. النباتات مُعلّمات رائعات. يكفي المرء أن يراها ليفهم قيمة الصبر، وأن النمو يحدث فقط حين تتوافر الظروف المناسبة، وحين توافرت، رويناها وشذبناها، وقسنا حرارتها. مع ذلك، كانت مسألة مثيرة للفضول، ففي نفس الظروف قد تنبثق من إحدى الفصائل زهور مختلفة للغاية، وقد لا تُزهر أصلًا.

خططنا معًا بهدوء لأفضل طريقة للقضاء على نمل خزانة المطبخ، وقطط السطح البرية المتوحشة، والماريجوانا التي أصر بابلو على زراعتها في المزرعة كلِّها. قررنا بالهدوء ذاته كيف سنتعامل مع نوبات غضب توماس ودرجاته السيئة، وكوابيس دابيد وفترات الصمت التي يصعب تفسيرها واعتاد أن يغرق فيها. لطالما تشمسنا أيضًا عند المسبح ونعسنا مع

الكتب التي نقرؤها. إلى جانب النباتات، جاءتنا أفضل النصائح دائمًا من الشمس والماء والأدب.

وددنا أن نكون كما الأشجار، بنفس صمتها ونفس سكونها؛ أن نكون كما الأغصان لكيلا يهزنا شيء سوى الريح؛ وألا نضطر إلى القلق من أي شيء سوى كثافة الأمطار، لكن كلَّما انتهى رقادنا الدافئ في نهاية الصباح، فتحنا أعيننا مرَّة أخرى وأدركنا أن شيئًا لم يتغير، وأننا لا نزال كما نحن. مجرد امرأتين تحاولان أن تتحليا بالقوة؛ مجرد امرأتين انعزاليتين تأخذان جرعتهما من الواقعية برشفات صغيرة لكيلا تتوعكا منها.

لا أعرف متى ولا كيف أصبحتُ أمًّا لإخوتي. كانوا الأبناء الذين لم أحظ بهم وأنا الأم التي ليست أمًّا. لم يرقني الأمر. بدأتُ في تلك الفترة أشعر بأسى على كل النساء الحوامل اللاتي رأيتهن في الشارع. وددت أن أصرخ لهن قائلة إن كل هذا خدعة، فالأطفال لطيفون ما داموا أطفالًا، لكنهم بعدئذٍ يصبحون كائنات معقدة، ويمتصّون الوقت كلَّه والمال كلَّه والطاقة كلها، وأنهم يستهلكون أمهاتهم، ويُولِّدون داخلهن مشاعر متناقضة تجعلهن يشعرن بالاستياء من أنفسهن لاحقًا. صرت حقًا امرأة أنانية. لم أود أن أجعل أحدًا شريكًا فيَّ. صرت أتسابق في أن أصبح شيئًا يُمكن الاستغناء عنه.

إن تفادي الحَمل هي الخطة الوحيدة التي أعددتها بدقة طوال حياتي. لم أتهاون قط، أجري حساباتي جيدًا. أعرف منذ

فترة طويلة أن الأبناء والموت أمران لا يُمكن الرجوع فيهما. سابقًا، أشهرتُ ألف حجة للفرار من الأطفال، كأنني مضطرة إلى تسويغ لماذا لا أحملهم -حتى في رغباتي أو أفكاري- على الرغم من كوني امرأة. حينما لا أقدر على تفادي الأمر، أمسك بين ذراعيَّ فقط بأبناء غيري، بسبب الارتياح الكبير الذي ينجم عن معرفتي بأنني يُمكنني إعادتهم. لا أعرف ما إذا كان الناس قد ملوا من سؤالي عن أسبابي، أم أنني التي لا تعرف كيف تُسوِّغ أسبابها. ربَّما الناس هم من يرفضون فهمي. لا فارق. توقفتُ منذ فترة عن الانشغال بما يفكر فيه الآخرون. في نهاية المطاف، ثمة مزايا لأن يكبر المرء.

كنا خمسة إخوة. صرنا الآن أربعة. لا وجود للغضب. لا وجود للخوف. لا وجود للضيق. لا وجود للأطفال حولنا لأن أيًّا منا لم يودّ أن تكون له ذرية.

أنا أيضًا، كأغلب الأطفال، حلمت أن أكبر. نفخت شموع كعكة عيد ميلادي الصغيرة، كلَّما جاء السابع من يوليو، وتمنّيت سبع رغبات. وددت حظيرة دجاج وكثيرًا من الببغاوات. وددت كوخًا أمام البحر ملآن بأشجار النخيل واللوز تصل إليه طيور الدُرَّة بصخبها المبهج. وددت قراءة كل كتب العالم. وددت أن أؤلف كُتبًا بنفسي. وددت أن أكسب مالي بنفسي وأن أسافر عبر العالم.

إنها أسباب كافية كي تتمنى طفلة عمرها أحد عشر عامًا أن تكبر. لا أعرف ما إذا كان الأمر قد حدث من دون حاجة إلى جنّيٍّ أو مصابيح سحرية لأنني حلمت به كثيرًا. فجأة، ذات مساء في مايو، كبرت ثلاثين عامًا مرَّة واحدة. إنه اليوم الذي اغتيل فيه أبي. إنه أيضًا نفس اليوم الذي اكتشفت فيه أن الأمور لا تحدث بالضبط كما يُخطِّط المرء لها.

توقفت، بين هذه اللحظة وتلك الأخرى، عن التفكير في الحيوانات الأليفة، وفي الكتب التي سأؤلفها وفي الكوخ المواجه للبحر، لأبدأ في التساؤل حول ما إذا كنّا سننتقل إلى بيت آخر أصغر، وسنسرِّح كاتالينا وكبير الخدم وسنبيع

المزرعة والسيارات وسنلجأ إلى ركوب الحافلات. لم أكن قد ركبت حافلة قبل ذلك قطُّ قبل، ولم أعرف كيف يركبها المرء.

لكن أكثر ما أقلقني هو اكتشاف أن الناس لا يموتون فقط في نشرات الأخبار: لقد ملأتني معرفة أن هذا الأمر قد يحدث في بيتك ولأبيك بقلق مفرط حول أن ماما قد تتعرض لنفس الشيء، عجزت عن التفكير في أي شيء آخر. لطالما حلمت ليلًا بأنها تموت، حين تتأخر ولو لحظة واحدة، في الوصول إلى المنزل أو على موعد أخذي من المدرسة، فتوترت جدًّا لأنني في تلك اللحظة اعتدت أن أجد نفسي أتساءل من سيتولى مسؤولية خمسة أيتام لو أنّها لم تعد موجودة، وأين سنعيش وبأيِّ مال. ربَّما سيفرقوننا ويرسلون كلَّ واحد منا إلى أحد الأقارب المختلفين، ربَّما سيكون من نصيبي وحدي الاضطلاع بمسؤولية التوائم الثلاثة.

لم أشعر بأنني قادرة على أمرٍ مثل هذا. فكرت دائمًا أنه في حالة موت أمي، فإن خياري الوحيد هو الموت معها. كانت هذه هي خطتي، وفي تلك الأمسيات المليئة بالقلق التي فقدتُ فيها أثرها، اعتدت أن أتخيل طرقًا لتنفيذ الأمر، وفي مرّات كثيرة، أفزعتني أفكاري الشخصية.

لم تتضمن رغبتي في أن أصبح بالغةً كلَّ هذه الأمور المقلقة؛ بل إنها لم تتضمن أيًّا منها أصلًا، وفجأة امتلأت بها جميعًا. لم أخطّط للأمور هكذا. لقد نصبوا لي فخًّا. لم أعرف من الذي قد ألومه: الرب لأنه توقف عن النظر إليَّ؟ أم راهبات المدرسة

لأنّهن جعلنني أظن أن الرب سيرعاني؟ كنّ كاذبات. لم يقلن أيَّ شيء حقيقي. اعتدت أن أحبس نفسي في دورة المياه في الفسحة كي أبكي، فجعلنني أخرج منها بالقوة، وأجبرنني على الصلاة، وقلن لي إن كل الأمور ستكون بخير.

توليتُ بعد موت أبي مسؤولية توصيل التوائم الثلاثة إلى المدرسة، وساعدتهم في واجباتهم واخترت لهم أزياءهم المدرسية الصحيحة. تعلّمت الطبخ. تعلّمت الكنس ومسح الأرض وفركها. غسلت الأطباق بعد تناول الطعام. نظفت قفص عصافير الكناري. رويت الحديقة. توقفت أيضًا عن التشاجر مع أخي الأكبر. لم يعد لديَّ وقت لفصول الألعاب أو جهاز الـ"نينتيندو". لم أودّ أن ألعب أصلًا لأن الأمر جلب لي ذكريات سيئة. شعرت بالغمِّ في كل عيد ميلاد وكل عيد أم لأنني لم أمتلك مالًا لشراء هدايا لأمي، فاعتدت أن أكتب إليها بطاقات لم تحتفظ بها قط. قلت فيها كلها: "أنتِ أفضل أمٍّ في العالم. لا تموتي أبدًا". لطالما تجاهلتْها، لأنها لم تقدر على وعدي بشيء تنفيذه ليس في متناول يديها.

أدّيت فروضي المدرسية دائمًا. درست كثيرًا ولم أرسب في أيِّ مادة قط. تصرفت بأفضل صورة ممكنة لأنني لم أرغب في أن أمنح أمي أسبابًا للانهيار. احتجت إليها وهي قويّة. إنها الشيء الراسخ الوحيد الذي أمكنني أن أتشبث به. مع ذلك، انهارت في بعض الأحيان. لطالما أغلقتْ على نفسها غرفتها طيلة ساعات في تلك الأمسيات التي تحوّل فيها البيت إلى

ساحة حرب بيني أنا وإخوتي. إنها تلك المرات التي اهتجنا فيها جميعًا من دون سبب واضح، حينما تزامن شعورنا بالغضب مما حدث لنا ولم نجد أحدًا قد يُفسّره لنا؛ وحينما غدت كل الأمور مظلمة وبلا معنى؛ وحينما أدركنا أن الذكريات ليست كافية لملء الفراغ الذي يتركه الأب. قضت أحيانًا أيامًا كاملة من دون أن توجِّه لنا كلمة واحدة، ووجب علينا أن نبتكر طرقًا للفت انتباهها، لإعادتها مرَّة أخرى من هذا المكان المظلم الذي لاذت بنفسها فيه. احتجنا إلى الشعور بأن كلّ الأمور على ما يرام، لكن أحدًا لم يُمسكنا من أيدينا وينظر إلى عينينا ويؤكد لنا أن هذا هو ما سيحدث. ما من أحد في ميديين في تلك الفترة كان قادرًا على تأكيد أمر مثل هذا. في الواقع، ما من أحد في الحياة يُمكنه أن يؤكد لك شيئًا.

الكتب هي الشيء الوحيد الذي تبقَّى من رغبتي الأساسية. سلّمتُ نفسي إليها بوصفي شخصًا ليس لديه مكان آخر يلوذ إليه. بدأت أعاني من الأرق، وفي مرّات كثيرة باغتني شروق الشمس ومعي كتاب في يديّ. على الأقل، كنت أنفذ أمنيتي بقراءة كل الكتب الموجودة في العالم. لو أنني ذات مرَّة فكرت في الموت، فقد نبذت الفكرة بمجرد أن فكرت في أنّ الموتى لا يقرؤون. كلَّما ازدادت قراءاتي، أدركت كلَّ الكتب التي تنقصني. إنها مسألة لا تنتهي. سأحتاج إلى أن أولد ألف مرَّة أخرى، كي أنجح في مسعاي. لقد أنقذتْ الكتب حياتي.

علمتُ أنني أكبُر لأن كاتالينا لم تعد تبقى برفقتي ليلًا، هي

وأسنانها اللامعة، ولأنني كلَّما حاولت النوم في فراش أمي، قالت لي إنني أصبحت كبيرة وعليَّ أن أتعلم النوم وحدي. استمر خوفي من الدراجات النارية، والشيطان أيضًا. لم أثق في "سيدنا الراكع". الربّ؟ ما الفائدة؟ يقتصر وجوده داخل رؤوس كل أولئك الأشخاص الذين يعجزون عن العثور على شيء مبتكر يقولونه، فيقولون أمورًا مثل: "ربي يحميكِ" أو "ربي يساعدك" أو "ربي يمنحكِ القوة". أظن أن الأشخاص لا يفكرون حقًّا في الأمور التي يؤمنون بها ولا في تلك التي يقولونها. إن العثور على شخص مبتكر شيء مستحيل.

وسط كل هذا، استمرت ظلال السراخس تلفُّ وتدور وترعبني ليلًا في الفناء. بدت كأذرع تحاول اللحاق بي. خشيت من طقطقة خشب البيت وبومة السطح وصراخ الطواويس فوق أغصان الأشجار. خشيت من كل شيء. حتى ظلّي نفسه أفزعني. لم أشعر بأنني آمنة ولو للحظة واحدة. ليلًا أو نهارًا. لا في الشارع ولا في البيت. أخافني صوت الرعد لأنني ظننته ينجم عن قنابل. لا أزال أخشاه حتى الآن. ينطبق نفس الأمر على الدراجات النارية. في تلك الفترة بدأت أحلم بأنني أتعرض لإطلاق النار. كان حلمًا متكررًا، ولا يزال.

هكذا مرّ الزمن، لكن الذكريات واضحة جدًّا وقوية جدًّا، إلى درجة يبدو معها كأن كل هذه الأمور وقعت أمس. كبرنا من دون أن ندرك، وواجهنا الحياة بأفضل طريقة لدينا، وكلٌّ منا داخله حِمله، لأننا عرفنا أنه يجب على كل مرء أن يضطلع

بجمله وحده. لم نعد نذكر اسم بابا. لم نعد نتحدث عما جرى. كلّما جاء أحد على ذكر الموضوع، ابتعدنا عنه في محادثاتنا. قتلناه بقوة صمتنا الشخصي. أحيانًا، توجّب عليَّ أن أجتهد لأتذكر وجهه، وإيماءاته، والصورة التي تردد بها اسمه وهو يخرج من حنجرتي.

نطقته بصوت عال في بعض الليالي، كي أسترجعه، لكنْ حتى شيء مألوف كاسمه بدأ يبدو لي غريبًا. سأبدأ، مع مرور السنين، في الإشارة إليه بكلمة "أبي". تشق عليَّ كتابة كلمة "بابا" وإذا دعوته ذات مرَّة هكذا، فمردّ الأمر أنني أجبر نفسي، وليس لأنها كلمة تُشعرني بالراحة. فقدتُ أبي منذ فترة طويلة جدًّا إلى درجة يبدو معها الآن تفكيري في أنه كان لديَّ أب ذات مرَّة، وفي أنني تشبثت برقبته وأغرقته بقبلاتي، أمرًا غريبًا. فقدتُ هذا الإحساس بالقرب، ولهذا أظن أنني لن أعرف كيف سأتصرف لو وجدته أمامي اليوم ولو للحظة. لن أعرف كيف سأحييه أو ما الذي سأقوله له. من جانب آخر، لا تتواءم الحسابات معي أبدًا، رغم أنني أعرف أنه أمر متناقض، إذ يبدو مستحيلًا أنّ ثلاثين عامًا تقريبًا قد مرت. يبدو لي أن كلّ هذه الأمور حدثت أمس. ربَّما لأنني أعيد خلق ظروف موته بصورة مستمرة، ولا أعثر على تفسير أفضل بخصوصها.

أتذكر الملابس التي ارتداها، وما أكلتُه في ذلك اليوم، وما فكرت فيه، وما بكيت عليه. لا أزال أتذكر بوضوح الكوابيس التي جاءت إليَّ في الليلة الأولى من دونه، وبالمثل استيقاظي

في بيت الجدّة. أتذكر كل هذه الأمور مشهدًا تلو الآخر، كأنها منقوشة في ذاكرتي كوشم. حضرت جنازته ألف مرَّة. أعرف من حضرها، ومَن لمس سترتي، ومن كذب عليَّ وقال إن كل الأمور ستكون بخير. أمقتُ الجنازات. ينبغي أن يمنعوها. إنها أكثر المراحل المؤلمة بالنسبة إليَّ في هذه المعادلة، وهذا لأن إدراك الواقع والتيقن منه يزداد مع انتهاء السُبات الناجم عن صدمة النبأ الأولية. لا حاجة إلى كل هؤلاء القوم لتذكير المرء بمدى فظاعة الوضع، ولا إلى أن ينكؤوا جراح المفجوعين، وهم يعرفون أنهم سيذهبون بعدئذٍ بهدوء إلى بيوتهم لمواصلة حياتهم الطبيعية، على النقيض من الألم الذي يبقى مع المرء، مع المرء وحده.

اليوم، أشعر بالاحترام تجاه أبي أكثر من شعوري بالمودّة. مع ذلك، ألاحظ وجوده بطريقة مستمرة: أنا الأخرى أخترع كلمات، وأضحك بعلوّ الصوت، وأصنع أشكالًا مضحكة بوجهي. لديَّ بنية وجهه، وشكل شفتيه ونفس قدرته على إقناع الناس من دون أن يدركوا الأمر. أنا عنيدة وعمليّة وأظن دائمًا أنّ الآخرين مخطئون. أحيانًا، أشعر بأنني مطاردة ومهددة وفي حاجة إلى الاحتماء بدرعي. أتناول طعامي في أوقات غير مناسبة، حينما أشعر بالجوع فقط، ولا أعتبر أي وجبة متكاملة من دون الأفوكادو. أجتث الحشائش الضارة من بين الأحجار وأستمتع بزراعة الأشجار وروي الحديقة بالخرطوم. تنتابني خيالات قرب الشروق تجعلني أقفز من الفراش لأكتبها قبل

أن أنساها. أتحول رويدًا رويدًا مع مرور الوقت إلى أبي بصورة أكبر. علم الجينات.

حينما أحلم به لا نتلامس أبدًا، وأقضي الليل بطوله بحثًا عن طرق للفت انتباهه ولسرقة كلمة واحدة منه، لكنه لا ينظر إليَّ أصلًا. نحن غريبان يحدسان وجود ماضٍ كبيرٍ بينهما لكنهما يعجزان عن تذكره. في آخر مرَّة حلمت به، مر سريعًا إلى جواري ونظرت إليه. نظرت إليه وأنا أتساءل لِم يبدو أصغرَ مني سنًّا!

لطالما لُمت أبي على صمته، وفجأة صرنا جميعًا نتصرف بنفس الصورة. الصمت شيء يُنسج ويُحبَك كما يفعل العنكبوت حين يصنع شبكته. لا يعرف أحد ثقل الصمت إلّا حين يحمله داخله. ما من أحد يعرف الصخب الذي يُولِّده وما يُحركه ودَوخته. أعتقد أننا جميعًا دائخون.

ظن الناس أننا تخطّينا الأمر جيدًا، لكن الغياب حفرة لا نهاية لها. ينساه المرء أحيانًا، لكنه لا يتخطّاه. يحسب الناس أمورًا كثيرة، لكنها في الحقيقة ليست كما يحسبونها. يحدث هذا دائمًا حينما لا يعيشون تحت نفس السقف الذي تعيش تحته، وحينما لا يسكنون نفس الجسد الذي تسكنه، وحينما لا تلاحقهم نفس الأطياف التي تُلاحقك. يتعلم المرء خداعهم بالابتسامات وعبارة "أنا في خير حال" التي يقولها بعفوية، فلا يشتبه أحد في نقيضها.

عشت أنا وإخوتي في نفس البيت، لكننا تصرفنا أحيانًا كغرباء تمامًا. بدأ التواصل ينعدم بيننا من دون أن ندرك. شيَّد كلٌّ منا أسوارًا حول نفسه كأحد أشكال الحماية، والبقاء واقفًا ومواجهة القواعد الجديدة التي فرضتها الحياة علينا. في تلك الأثناء، كنّا على يقين من أنه لا فائدة من البكاء، وأن الشكوى لن تغير الأمور. يتبقى دائمًا الاختيار المريح لأن يلعب المرء دور الضحية ليحظى بالاهتمام وعناية خاصة.

يُمكن مسامحة الضحيّة على أي شيء: على الدرجات السيئة في المدرسة، على الغياب عن الفصول، على عدم التحلّي بالمسؤولية مع أغراضها. الضحية كيانٌ هشّ: ينهار ويشكو ويتطلب جرعة كبيرة من الشفقة، تستمتع الضحيّة بألمها وينتهي بها المطاف وهي لا تعرف العيش من دونه؛ كلَّما بدأتْ تعافيها، نكأت جرحها بنفسها وكشفته إلى حد التفاخر، وكلما تراجع تفكيرها أصبحت الضحية وجرحها شيئين لا ينفصلان. الأسهل أن نلعب دور الضحايا، ومع ذلك لم يستسلم أيٌّ منا إلى هذه اللعبة لأن أمنا أظهرت قوة كبيرة لا يليق معها سوى الاقتداء بها. راهنَّا جميعًا على أن نصبح أقوياء، على الرغم من انكسارنا الداخلي. تمثلت القاعدة الوحيدة لهذا الرهان في إخفاء الألم لكيلا يلاحظه الآخرون. الابتسام والتظاهر بأن شيئًا لا يحدث وأننا نفس العائلة الطبيعية المعهودة. معنى "لا- تفكر- في- هذا- الأمر" هو ألّا نجعل الآخرين يظنّون أننا نفكر فيه.

مع ذلك، قرر أحد التوائم الثلاثة أن يخوض رهانًا أخطر. لا أتعجب من أنه تجرأ على أمر مثل هذا. لطالما قدر بابلو على تخطّي الحد الفاصل بين الشجاعة والتهور، وحينما يجتاز المرء هذا الحد، فلا سبيل لإعادته. لا يصل المرء إلى حالة التهور بصورة مرتجلة. إنه نفس الطفل الذي نزل من السيارة ذات مرَّة وسط الطريق السريع بعد أن ركنتها ماما، ككلِّ مرَّة، حينما لم تتمكن من القيادة جيدًا بسبب ضوضائنا وشجارنا. اعتادت أن تقول "إما أن تنزلوا وإما ان تصمتوا، فهكذا سنتعرض إلى حادث تصادم"، فإذا بنا جميعًا نفزع من احتمالية أن تتركنا في وسط الطريق، ونحسن التصرف قبل وصولنا إلى البيت في صمت وسكون كأننا تماثيل. إنه نفس الطفل الذي نزل في ذلك اليوم من السيارة وبدأ يسير بخطوات ثابتة وحاسمة في وسط الطريق السريع. أطلقت السيارات أبواقها أمامه وناديناه كي يعود، لكنه ظل يسير ويسير عازمًا على ألّا يعود. ترجلتُ من السيارة وبدأت أركض وراءه. لما لحقته، شددنا وجذب بعضنا بعضًا في وسط الطريق لفترة. اتقد الأسفلت وكأنه يغلي من تحت أقدامنا وأفلتت السيارات لدى مرورها بخارًا أبيض ساخنًا برائحة الوقود. شعرت بذلك الوتد في حنجرتي، هذ الوتد الملعون الذي يحتل نفس الجزء دائمًا، ولا يدعني أتنفس؛ ذلك الوتد الذي ينتهي غالبًا بالدموع. ليست دموع الحزن، لأن العجز والغضب هما من نوع المشاعر الذي يجعلني أبكي.

نظرنا إليه جميعًا وهو يعود كأنه لم يفعل شيئًا، ويحتل

مرَّة أخرى مكانه إلى جوار النافذة بجدية. لمعت عيناه، واكتسى وجهُه بإيماءة اعتزاز من فعله المتهور. فجأة، بدا أكبر، كأنه رجل قادر على تحدينا بنظرته لإثبات أنه لا يندم، وأنه قد يفعلها مجدَّدًا وأنه لا يخشانا ولا يخشى أحدًا. أنا، على النقيض، قضيت وقتًا سيّئًا وأنا أحاول حبس دموعي. لا يُمكنني تحديد ما شعرت به. إنه مزيج غريب من الأحاسيس جعلني أفكر في أن هذا الطفل الذي نزل من السيارة ومضى في الاتجاه المعاكس على الطريق السريع لم يعد طفلًا: لقد صار رجلًا قادرًا على أيِّ شيء. بالفعل، كان بابلو قادرًا على أيِّ شيء بدايةً من تلك اللحظة.

لا أزال أتذكر لحظة اكتشافي للأمر: دعا بابلو مجموعة من أصدقائه للمبيت في المنزل. نزلوا ليلًا إلى المسبح لتناول الجعة. كان الهواء فاترًا. إنه ذلك النوع الذي يصل بدفئه إلى العظام. كان القمر بدرًا. سمعت من غرفتي دمدمة محادثاتهم وبعض الضحكات التي تميزت في البداية بتفجرها ولاحقًا باستمراريتها. شعرت بالقلق، ولم أقدر على النوم. نهضت وتوجهت نحوهم وأنا أحافظ على مسافة نوعية لا تسمح بكشفي. وجدتهم هناك، غارقين في ضحكاتهم، وهم يدخنون الحشيشة. كانوا قد رقدوا قبل ذلك على الأرض وظلوا ينظرون إلى القمر من دون أن يتوقفوا عن الضحك. لا أدرك كم من الوقت قضيته هناك وأنا مختبئة بين أشجار الغار.

تذكرت أخوالي. تشاجروا، كلَّما ذهبت إلى بيت الجدة، لاصطحابي إلى الحديقة كي يتمكنوا من تدخين الحشيشة. كبرت وأنا أراهم يتشوهون بصورة أكبر وأسوأ كلَّما مر الوقت، حتى منعتني ماما من الذهاب إلى الحديقة. شق عليَّ في البداية معرفة السبب، وبعدئذٍ أدركت الأخطاء التي ارتكبوها، والأشياء السخيفة التي وصلوا إلى ارتكابها باسم الإدمان. فجأة، باتت الجدة وهم هناك تغلق الأدراج بالمفتاح وتُخفي مجوهراتها في الخزانة. وصلوا جميعًا إلى القاع وبقوا هناك ليراقبوا ما صاروه. لم يتمكن إلّا واحد منهم فقط من استعادة نفسه.

الوقت هو الشيء الوحيد الموجود بين صافرة البداية وخط النهاية. إن الوصول إلى القاع لسِباقٌ مدوخ. بدأ بابلو الأمر ووجب علينا جميعًا أن نركض في هذا السباق. هذه هي مشكلة مدمني المخدرات: مدى انعكاس تصرفاتهم هائل. يتجاوزون حدودهم في كل تصرف. حين يظن المرء حقًا أنه لا يُمكن الوصول إلى أسفل مما وصلوا إليه، يتضح له لاحقًا أنه أمر ممكن، إذ يجدون دائمًا الطريقة المناسبة لتحقيق المسألة. حينذاك، ينتهي بنا المطاف ونحن منهكون ومغلوبون. إنه سباق يخرج الكلُّ منه خاسرين، لكننا لم نكن قد عرفنا هذه المسألة بعد. حين يطلُّ الإدمان برأسه، لا يعرف أحد اللعبة المخيفة التي يبسط أوراقها. يبدأ الناس في تحريك القطع الخاطئة، والإقدام على ألعاب سيئة تؤدي فقط إلى تدهور

إجمالي الأمور. لا وجود لقواعد واضحة، وإن وُجدت، فإن أحدًا لن يحترمها، لأن المدمن له وضعية وحيدة: عدم احترام أي قواعد. في النهاية يتأثر كل من حوله، حتى إن لم يشاركوا في اللعبة.

كان بابلو هوّة لا تشبع. لم يكتف قط. ودَّ المزيد دائمًا. كان على هذه الحال منذ طفولته. رضع بقوة كبيرة، إلى درجة أنه في مرّات كثيرة اختنق. بدا الأمر وكأنّه يدرك وجود رضيعين يتنافسان معه على كمية محدودة من لبن الأم. أراد كلَّ شيء لنفسه. لطالما أراد أن يُحيط بالمزيد وأن يرضع أكثر. اضطر مرتين إلى أن يذهب راكضًا إلى طبيب يعيش في نفس الحي، تمكن من إنقاذه بعد أن اكتسى جسده باللون البنفسجي وأصبح غير واعٍ، وكل من في بيت الجدة يلف ويدور حول نفسه، ظنًا أنه قد مات.

قضى كل طفولته بنفس الطريقة. تساوينا نحن الخمسة. حصلنا على نفس الأشياء وكبرنا عليها، لكنه شعر دائمًا أن شيئًا ما ينقصه. لم يستمتع بما حصل عليه؛ لأنه لطالما فكر في ما لم يحصل عليه. لمّا تلقّى في أحد أعياد ميلاده جهازًا لتشغيل الألعاب، عذب نفسه بالتفكير في أنهم على الأرجح أصدروا طرازًا أحدث. عشق الموسيقى واعتاد أن يشتري أجهزة تشغيلها بنفس سرعة ظهورها في الأسواق، في فترة شهدت إصدار جهاز جديد شهريًّا. قد يشتري حذاء رياضيًّا وفي اليوم التالي يُعجبه واحد آخر، وهكذا كانت الحال مع كل الأمور

تقريبًا. تبادلنا الأدوار لاختيار شرائط الـ"نينتندو"، وبينما نلعب جميعًا بسعادة ليلًا، شعر هو بالندم فعلًا وفكر في أنه أخطأ، لأن هناك ألف شريط ألعاب أفضل، وسيضطر إلى انتظار أربعة أدوار أخرى قبل أن يختار مجدَّدًا.

بدا كأن شيئًا لم يكفه. أراد أغراضًا، واهتمامًا، بأي ثمن، ولأنه لم يحصل على مبتغاه دائمًا؛ بات حانقًا طوال الوقت. بحث عن الاهتمام في الرياضات الخطرة، في المزاح الثقيل، في الأفعال التخريبية الصغيرة، في الحفلات، في العقّارات المخدرة، في الحشيشة، وفي أي شيء يجعله ينفصل عن الواقع. تنامى بحثه بصورة تدريجية بحتة، إلى درجة أننا لم ندرك الأمر، إلّا بعد أن تحول فعلًا إلى وحش هائل نخشاه. صار تجاهله الطريقة الوحيدة لقتاله. تظاهرنا طيلة سنوات بأن شيئًا لم يحدث، مع أن كل الأمور -في الواقع- كانت تحدث. يصعب دائمًا الاعتراف بأن مثل هذه الظروف تحدث في عائلة المرء. قد تحدث في الأفلام. قد تظهر في الأخبار. قد تُقرأ في الجرائد. لكن في عائلة المرء؟ لا. هذا لا يحدث.

تساءلنا جميعًا ما الخطأ الذي ارتكبناه. لا أزال أسأل نفسي، رغم أنني أعرف أنه من اتخذ قراراته وأن هذه كانت طريقته في التحلي بالقوة. طردوه من عدة مدارس. صدمته سيارات. أخذ أغراضنا من دون إذن ولم يُعدها. اختفى أياما كاملة وعاد بفترات ممحيّة من ذاكرته وجروح لم يقدر قطّ على تفسيرها. كلّما تصرف بعنف، ضرب نفسه في الحائط وهدّدَنا، وألحق

الضرر بكل ما يقع في طريقه. خشيتُه في البداية. بعدئذٍ، تفهمت أنه يجب عليَّ أن أدافع عن نفسي بدلًا من الانزواء باكية في ركن غرفتي. بدأتُ مواجهته. تعلمت أن أتصل بالشرطة من دون أن يرتعش صوتي: "أنا بمفردي في البيت مع أخي وهو يودُّ أن يؤذيني". هددت بالإبلاغ عنه. سخر من تهديداتي. أبلغت عنه مرَّة. أبلغت عنه مرّات عديدة. قضى ليالي كثيرة بعيدًا عني، في قسم الشرطة. في ليال أخرى، على النقيض، سمعته وهو يبكي وسمعني هو الآخر وأنا أبكي. تجاورتْ نافذتي ونافذته.

أصابني الإنهاك مع مرور السنين. عددتُها معركة خاسرة. قلت له إنني لن أُدهش إن اتصلوا بي ذات يوم وقالوا لي إنهم عثروا على جثته على جانب الطريق، وذات يوم اتصلوا بي وقالوا لي إنهم عثروا على جثته على جانب الطريق. لم أُدهش.

ظل ضوؤه ينطفئ كشمعة. كان متقطعًا كنور اليراعات. عاش هائجًا، وفاض هياجه فوقنا، فأغرقنا وخنقنا وأرعبنا. لا أزال أنطق اسمه بصوت خفيض، كأنه يقدر على سماعي. أقول هامسة: "بابلو"، لكن اسمه يتعثر داخل حنجرتي. "با- بلو". أقسِّم الاسم لمقطعين كي يؤلمني بصورة أقل، لكنني لا أقدر. أُصغِّره إلى أقصى حد: "با"، لكن هذا المقطع يبدو كضربة. "ب": إنه كافكويٌّ أكثر من اللازم. "الأسود": قاتم أكثر من اللازم. أعتقد أن الأفضل هو عدم نطقه. ربَّما لست مستعدة لهذا الأمر بعد. لا أعرف ما إذا كنت يومًا ما سأصبح مستعدة.

لم أتوقف عن نفخ شموع عيد ميلادي، لكنني لم أعد أومن بالرب، ولا بالأماني أو الرغبات، ولا بشخصيات الأفلام التي تجعلها واقعًا بمجرد النظر. على الرغم من كل هذا، أنفخها لأنها تذكرني بأنني يومًا ما كنت طفلة تنفخ الشموع إلى جوار عائلتها الكاملة ولديها أخ يُمكنها أن تنطق اسمه بحب، وداخلها اعتقاد ساذج بأن السعادة أمر يُمكن للمرء أن يُمسكه بيديه. كانت أيّامًا جميلة ولم أعرف هذا. ظننت أنها ستستمر إلى الأبد. لدى الأطفال الذين يحظون بطفولة سعيدة اعتقاد ساذج مفاده أن الأمور ستستمر هكذا طيلة حياتهم، لأن السعادة شيء لا يُقدّره المرء غالبًا إلّا حين يفتقر إليه. في النهاية، أن يكبر المرء ليس شيئًا جيدًا، خاصةً حين يصبح نصيب المرء أن يكبر في ظرف يوم واحد.

بمرور الوقت، صرت أقضي فترات أطول وأنا أغلق على نفسي حمام غرفتي. ظنت أمي غالبًا أنني أبكي، لكنّها أخطأت. لم أبك دائمًا. أحيانًا، حبست نفسي لأجرب ضحكتي أيضًا. مَطَطتُ شفتيَّ وقلّصتُهما. بدا فمي ككأس شفط علاجية. ظننت أن أسناني أكبر من المعقول، لكن راودني حدس قال لي إنها ذات يوم ستصبح ميزة أكثر من كونها عيبًا. بدت مُعوجَّة. لم أكن قد بدأت تقويمها بعد. صارت سنِّي الأمامية -الأمامية تحديدًا- مكشوطة من كثرة قضمي لأظافري. إنها مسألة لم أقصصها لأحد بالطبع. في الحقيقة، إنه أمر لم يشغلني فعلًا. لم يكن ملحوظًا من بعيد، لكن خشيت أن يودَّ أحد أن يقترب مني فجأة بصورة كافية، فيلاحظه. حينئذٍ، كان سيشغلني الأمر.

آنذاك، كلَّما سألوني، قلت إن السبب قضمة من مصاصة "بون بون بوم". من يأمر بصناعة حلوى قاسية كالحجر هكذا! طلبتْ طبيبة الأسنان مني ذات يوم أن أُظهر لها يديَّ، ولم تصدق روايتي. قالت إنها قد تلجأ إلى التركيبات ونصحتني بالتوقف عن مضغ الحلوى، بل وإنني يجب أن أتوقف عن تناولها أصلًا، لأن لديَّ سنًّا مكشوطة وتسوسين، بخلاف أنني في مطلع مرحلة عمرية لا تتسامح مع السعرات الحرارية.

جعلتني مسألة السعرات الحرارية أفكر. امتدت جلسات مواجهة المرآة إلى أوقات الفسحة في المدرسة، لكننا هناك لم نجرب ضحكاتنا. قالت زميلاتي إن هناك أشياء أهم من الضحك؛ أشياء مثل استخدام بكرة القياس لمعرفة مقاس خصورنا وصدورنا؛ مثل فحص هيئة ولون حلماتنا، وتأمل جمال ضلوعنا وعظام ترقوتنا البارزة. إنها أجواء مثالية لفقدان الشهية العصابي. أكلنا في أوقات الفسحة تفاحة واحدة وبسكويتًا من الحبوب الكاملة. شربنا الماء وكأنه سينتهي. انتقدنا من أكلن الحلوى والشوكولاتة. إنهن كائنات دهنيات. لا يحب الكائنات الدهنيات سوى أمهاتهن. نحن، على النقيض، مستعدات لأن يحبنا أشخاص آخرون. وددنا أن نكون محبوبات. أردنا أن نكون مرغوبات. سيتطلب الأمر منا وقتًا كي نفهم أن من يعشق خصرًا سينطلق راكضًا بمجرد أن يرى خصرًا آخر أفضل، والخصور الأفضل موجودة في كل مكان. هذه هي مشكلة الحب من نقطة محددة مثل هذه.

ها أنا ذي أعود إلى التركيز في تدريباتي، لأنني أحتاج في غياب النهدين والخصر إلى حيازة شيء يُسعد الآخرين؛ شيء يتخطى ملامح وجهي الحزينة. لن أطيق أن يصفوني باليتيمة أو بالكئيبة. ينبغي عليَّ أن أركز أيضًا في الحصول على درجات جيدة. لو رسبت في مواد، فسيظهر بالطبع من سيقول إنني لم أنجح بسبب مسألة أبي، وإنني ضعيفة أمام تلاطم أمواج الحياة. خطر لي أن الابتسام استراتيجية جيدة، إذ يمكنني على الأقل

أن أتحكم بها وأستخدمها حينما أرغب وحيثما أرغب. ستغدو مثالية مع القليل من الإتقان. كنت واثقة من هذه المسألة.

المط والتقلص. المط والتقلص. يبدو أن لديَّ شفتين رفيعتين جدًّا. إنهما مليئتان في أغلب الوقت بالتشققات والجلد المتقشر المرفوع الذي لا يقدر الفازلين أو زبدة الكاكاو على التعامل معه. تتوتران مع كل مرَّة أمطُّهما فيهما وتؤلمانني. ينبغي أن أطلب من أمي أن تشتري شيئًا أقوى. لديَّ شعور بأن شفتيَّ ستزعجانني طوال حياتي: تتقشران من البرد والحر والليمون وماء البحر والـ"مينيسيغوي"* والـ"كوكا كولا"، وأيضًا من تمرير لساني فوقهما. ريقي أيضًا عدوُّي. شعرت بالقلق من معرفة ما سيحدث حين يُقبلني أحد.

لو وددت أن أسبغ ابتسامتي بالكمال، فعليَّ أن أتخطى كل هذه الأشياء وأن أتجاهل ألم شفتيَّ. في نهاية المطاف، علمت بالفعل أن الألم شيء يعتاد المرء عليه في النهاية. تبين لي أيضًا أنني كلَّما مططتُ شفتيَّ قدر استطاعتي بزغت لديَّ غمازتان أعجبتاني جدًّا، وتشابهتا مع التجعدات الصغيرة الموجودة حول عينيَّ. سمَّتها ماما "سيقان الدجاجة" وكافحتها بكريمات باهظة الثمن. ها أنا ذي أبقى بضع ثوان بابتسامتي المتجمدة أمام المرآة. ها أنا ذي أبقى ساكنة كتمثال وأنا أنظر إليها في المرآة بثبات كي أتفحصها. فعلًا. أتفق مع ماما. بدت كسيقان دجاجاتي. أحببتُها آنذاك لأنها رفعت من القدرة التعبيرية

(14) * نوع من الحلوى الكولومبية. (المترجم)

لابتسامتي، ولأنها اختفت حين توقفتُ عن الابتسام، لكنني تكهنت بأنها لن تروقني بهذه الصورة بعد بضع سنوات، حين تستقر حول عينيَّ. تمنيت أن تكون ماما قد اكتشفت أفضل دهان لإخفائها حين يأتي هذا اليوم.

"ها ها ها". ها أنا ذي أتجرأ على إضافة صوت لابتسامتي. ها أنا ذي أمضي من الابتسام إلى الضحك، ومن الضحك إلى القهقهة. تمضي كل الأمور بسلاسة مرور الهواء في أنبوب. أركز في قهقهتي. أكتشف أنها تبدو أصدق حين أدمجها مع حركات مفاجئة بكل جسدي. لو وددتُ آنذاك، لألقيت بنفسي أرضًا لكن حمَّامي لم يكن واسعًا جدًّا. سأحتاج إلى تجربة الأمر في غرفة ملابس ماما التي ضمت مرآة ضخمة ومنطقة اتسعت لجسدي بصورة مثالية وهو ممدّد وفي حالة تقلص كاملة.

ها هي ذي الأيام تمضي، فألاحظ أنني أكتسب مزيدًا من الثقة وأقهقه بقوة أكبر. يبدأ الناس في تعريفي بهذا الأمر. يقولون إن ضحكتي معدية. إنهم محقون. كلَّما مر الوقت، تصدر مني بسهولة أكبر، وعفوية أكبر، ويتذكرها كل الناس. أعتقد أنني بدأت أغدو صُحبة مرغوبًا فيها وفنّانة في الضحك. لديَّ دائمًا شخص مستعد للجلوس إلى جواري. يبدو أن الناس يُحبون من يُضحكهم. يُحبون أن يروا الآخرين وهم مسرورون. يُمكن للجميع أن يفعلوا هذا الأمر لو تدربوا كثيرًا

مثلي، لكن أنا أسبقهم بمسافة كيلومترات.

خدعتُهم بصورة جيدة إلى درجة أنني كلَّما اضطررت للخروج في الفصل لعرض شيء ما، خرجت والفصل كله يقهقه أمامي، حتى وأنا ميتة من التوتر. كلَّما أقدمت الممرضات على حقني، نظرن إليَّ لنفس السبب. لم أتوقّف عن الضحك، حتى وأنا أشتبك مع إخوتي. اعتدنا من قبل أن نتشاجر ويضرب بعضنا بعضًا، لكن المسألة لم تعد ممكنة. بتُّ عاجزة عن التغلب عليهم. باتوا أضخم وأثقل في ظرف لا شيء. أمكنهم أن يدوسوني بأصابعهم لو ودّوا، لكنني آمنت أيضًا بأن الضحكة الهازئة سلاح أفضل. أظن أنها قلبت أحشاءهم وحركتها من مكانها.

ظننت أنني ذات يوم سأنسى الأسباب التي بدأتُ أضحك بسببها، لو استمرّ الأمر هكذا. ظننت أنني سأنسى حزني، بسبب هوسي بأن تكون الغلبة لنقيضه.

فزت خلال هذا الشهر في المدرسة بجائزة أكثر ضحكة مُعدية. أصررت على الحفاظ عليها طوال المدرسة الثانوية، وعلى الحصول على لقب صاحبة أكثر وجه بشوش في الكتاب السنوي لدى تخرجي من المدرسة، فهذا وحده ما كان سيجعلني واثقة من مثالية تمثيلي، وأن أحدًا لم يتعرف إلى وجهي الحقيقي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأمر الوحيد الذي سأقوله لكم هو ألّا تثقوا فيمن يضحكون دائمًا. ربَّما هذه هي طريقتهم في التعبير عن النقيض التام لما يشعرون به. أقول لكم هذه المسألة، وأنا أكتب، وثمة ابتسامة على فمي.

سرقني أخي، أخي أنا. أدركت الأمر لأنني بحثت عن سلسلة ذهبية أردت أن أرتديها ولم أجدها. ظننت أولًا أنني أضعتها، لأنني لسبب ما أضيع أغراضي دائمًا، لكنني تذكرت لاحقًا أنني رأيتها داخل علبة المجوهرات قبل ذلكٍ ببضعة أيام، ومن ثم شككت في كاتالينا. إن الاشتباه في عاملة الخدمة المنزلية عادة سيئة على الدوام، لكن حين يقدر المرء على اختيار لصّه، سيفضِّل دائمًا أن يصبح أي شخص إلّا أخاه. السرقة بين الإخوة ممنوعة، لكنّ أخي سرقني.

ذات يوم وأنا أبحث في مكتبة غرفة التوائم الثلاثة، رأيت إيصال بيت رهونات فيه وصف لغرض بمسمّى "سلسلة ذهبية" من دون أي شيء آخر. لم تكن مجرد سلسلة ذهبية فحسب بالنسبة إليْ. لقد أهداها أبي إليَّ في مناولتي الأولى، وبعد موته المفاجئ باتت رسميًّا هديته الأخيرة. لم أرتدها قطُّ خشية إضاعتها، لكنني أضعتها، أو بالأصح سرقها بابلو مني.

أول ما فكرت فيه حين رأيت إيصال بيت الرهونات هو مواجهته، لكنني لم أقدر حين وصل من المدرسة. كان الحديث معه قد صار مستحيلًا منذ فترة، إذ أصبح عدائيًّا مع

أي شخص يعارضه، وعثر دائمًا على الطريقة الملائمة لجرحنا بكلمات ظل رنينها يدوي في رؤوسنا كناقوس. بعدئذٍ، فكرت في أن أحكي الأمر لماما، لكنني لم أقدم على الأمر. ولا حتى لأخي الأكبر ولا لأخوالي ولا لأصدقائي أو أيِّ أحد. ثمة أمور تصعب حكايتها، لأن حكايتها ستعني أن المرء تقبلها، وأنا لم أكن قد تقبلت بعد أن أخي مدمن. سأستغرق وقتًا لأتقبل الأمر.

حينما يودُّ المرء أن يطرح موضوعًا ما، فإنه غالبًا يبحث عن عذر لكيلا يفعل الأمر. إذا أحسن المرء البحث، فمن السهل جدًّا أن يعثر عليه. كلَّما مرّت الأيام، تراجعت شجاعتي للإقدام على المسألة، إلى أن أقنعت نفسي أن الأمر ربَّما لا يستحق العناء. في نهاية المطاف، إنها مجرد سلسلة، أو إنني وددت فقط أن أغض بصري عما يقف وراء سرقتها.

في تلك الأثناء، كانت مشاكل أخي مع المخدرات قد تجلّت، لكن أحدًا لم يرها. أغمضنا جميعًا أعيننا، لأن هذه المسألة من طينة الأمور التي تحدث للعائلات الأخرى، لا لعائلة المرء. إنها أمور تحدث في أحياء أخرى ولقوم آخرين، وليس للمرء. أعترف أنها مسألة صعبة لأن الكل تذكر إخوتي جيدًا لكونهم ثلاثة توائم، ولهذا كلَّما قابلت أحدًا في الشارع، غالبًا ما سألني عنهم، وأجبتهم دائمًا أنهم في خير حال، قبل أن أغيّر الموضوع. لا بد أن يرى المرء كم كنت ماهرة في تشتيت انتباه الغير!

ضاعت مني أشياء أخرى بعد السلسلة الذهبية. أعتقد أننا جميعًا ضاعت منّا أشياء في بيتنا، لكننا لم نتحدث عن المسألة إلّا في وقت متأخِّر جدًّا، جدًّا.

لو أن الأحمر شخص وليس لونًا، فهو أخي توماس. إنه أحمر من اللون الأحمر نفسه. وُلد أحمر اللون، وظل هكذا من كثرة شجاره مع التوأمين الآخرين للعثور على مكان في بطن ماما. حين فتح عينيه للمرة الأولى، كانتا حمراوين كأمسيات شهر يوليو. بعدئذٍ، بدأ شعره يطول وكان أيضًا أحمر، كحال حاجبيه ورموشه وكلِّ الشعر الصغير الموجود في جسده.

بدأت بشرته البيضاء تكتسي سريعًا بنمش ضارب إلى الحمرة وصارت تحترق من أشعة الشمس. لهذا ارتدى دائمًا قبعات حمراء. تزداد حمرته كلَّما غضب أو تهيج. يكتسي بالحمرة كلَّما ضحك أو صرخ؛ كلَّما شعر بالخجل وكلّما مرض؛ كلَّما حزن وكلما فرح؛ كلَّما شعر بالحر أو البرد. لا يعرف لونًا آخر في الواقع. ربَّما لهذا السبب يرتدي الأحمر دائمًا. مللنا جميعًا من إهدائه ملابس بألوان أخرى، لأنه لم يرتدها قط، وبتنا الآن نهديه أشياء حمراء فقط. مهما كانت المناسبة، يرتدي توماس دائمًا قميصًا أحمر وسترة حمراء وقبّعة حمراء وحذاء أحمر ونظّارة حمراء. استسلمنا وقبلناه هكذا. لا يُمكن أن تطلب من لون أن يتخلى عن كينونته.

قطّتُه حمراء هي الأخرى واسمها "سيراتشا". كلٌّ منهما يعشق الآخر؛ فالحُمر يفهم بعضهم بعضًا. حين تنام في فراشه، ينام هو على الأرض لكيلا يزعجها. لديه أيضًا أنثى ببغاء اسمها "جيني". تطير صباحًا إلى غرفته وتقف فوق ظهر فراشه، في انتظار استيقاظ هذه الحُمرة البشرية لتقدم لها قطعة من الموز وحفنة من الفول السوداني. بعدئذٍ، تنطلق محلّقة لتقضي بقية اليوم بين أشجار الجوافة.

تحبه كلُّ الحيوانات: يستجيب الدجاج إلى ندائه، ويقترب الديك الذي ينقر الجميع ليأكل من يده. يهز الكلب ذيله حينما يسير معه في الأرض الخلاء، وتقترب الأبقار منه ليداعبها. يكفي أن يهتف باسم أنثى الببغاء لتظهر محلقة وتقف فوق كتفه، فيحتج لأن مخالبها طويلة وتؤذي بشرته الحساسة جدًّا، ومع ذلك لا يقدر على إبعادها عن كتفه، ولهذا تظل هذه الكتف دائمًا ملآنة بالخدوش، لأنها تُصاب بجراح جديدة قبل شفاء القديمة. كل قمصانه أصلًا ممزقة من عند كتفيه.

يُمكن انتظار أي شيء من شخص أحمر؛ ولهذا نشك في أنه قادر على التحدث مع الحيوانات أو أنه أوقف الزمن لكيلا يتقدم في العمر. التقدم في العمر ليس أمرًا يليق بشخص أحمر. حتى الآن لم ير أحد قطُّ شخصًا أحمر ناضجًا.

إنه ذكيٌّ جدًّا إلى درجة أنه يعثر دائمًا على الطريقة الملائمة ليجعلنا كلنا طوع أمره. لا يُمكنك أن تعارض شخصًا أحمر مع

عينيه المشتعلتين الجميلتين اللتين لا يودُّ أحد أن يُفسدَهما. إن روحه نقية جدًّا بنفس النقاء الذي يجب أن تكون عليه روح الحيوانات والأطفال. يكفيه فقط أن يحرك رموشه الحمراء ويرسم ابتسامته الحمراء كي تتحقق كل رغباته.

لطالما كان المفضل لكاتالينا. شعرتُ بالغيرة كلَّما وقفتْ إلى جوار فراشه لتغني له بدلًا مني، إلى أن تفهمت أنه لا سبيل للتنافس مع الأرواح المضيئة جدًّا بُحمرتها. روح توماس واحدة منها.

حين مات أبونا، اكتسى توماس بحُمرة أشد من كل درجات الحُمرة الموجودة في العالم معًا. لربما غار اللون الأحمر الأصليّ منه؛ لهذا قررنا، كي نُخفف من حمرته، أن نهديه كلبة ملونة اسمها "لوبيتا". أظنُّ أنها هي من علمته لغة الحيوانات. إن رؤيتهما معًا واجبة لإدراك الأمر: بدوَا كبُقعتين حمراوين وسط عالمهما الخاص؛ كروحين بلون النار وطاقتها؛ ككائنين سماويين لا تليق هذه الأرض بهما. شيدا معًا كوكبًا أحمر بعيدًا عن الأمور السيئة والدنيوية، وهو كوكب لم يُصبه تآكل هذا العالم. بدوَا كشرارتين برَّاقتين محبوستين داخل جسدين عجز جلدهما عن تغطية كل الضياء الموجود داخلهما.

مع مرور الوقت، كبرنا نحن الإخوة؛ كبرنا لأنه يجب أن يكون المرء أحمر لكيلا يكبر. بحث كل منا عن ملاذه، كما تبحث الأرانب عن مأواها. لجأ سانتي إلى الرسم حتى صار

طبيبًا، ودابيد إلى الفن والتصوير، وبابلو إلى المخدرات، وأنا إلى الكتب. بقي توماس من جانبه في عالمه الخاص. لا نعرف ما إذا كنّا عجزنا عن انتشاله منه أم إننا لم نرغب. لهذا ظلت روحه الحمراء النبيلة من دون مساس، كروح طفل.

يعيش دابيد داخل سحابة. ليس لها مدخل. يعيش في الأعلى، في مكان مرتفع جدًّا؛ في مكان لا تصل إليه الكلمات. يعيش محاطًا بألوان لم تُبتكر أصلًا. تبدو عيناه الوحيدتين القادرتين على رؤيتها، ويداه الوحيدتين القادرتين على رسمها. يلتقطها بعدئذٍ بعدسة كاميرته، ويطبعها ويحولها إلى لوحات فوق جدران البيوت. ينظر إليها بقيتنا إلى أن تتشبع أعيننا منها أو إلى أن تُرهَق عقولنا من محاولة العثور على معانيها، أيًّا كان ما يحدث فيهما أولًا.

يعيش داخل سحابة ويفقد كل أشيائه. أحيانًا، لا يعرف مكانه أصلًا. حين ينزل من السحابة، يفعلها كالمطر الذي ينهمر فوق الحقل: يغمر كل شيء، لكنه لا يبقى في أي مكان. يُشبع عطش الأشجار بالصورة الكافية، لكنه يفلت من بين الأصابع. يفيض أيضًا، إن تراكم. ما من وعاء قادر على احتوائه. حين يتبخر، يعود مرَّة أخرى إلى السحاب كي يبتكر عوالم من الألوان يمكنه أن يتنزه فيها هو وآلامه.

يعيش داخل سحابة ويتأخر وصوله دائمًا إلى أي مكان، أو إنه لا يصل لأن الأيام تختلط عليه. لا يرتدي ساعة يد أبدًا،

ومن ضمن عاداته السيئة عدم اطلاعه على التقويم، بل إنه لا يملك هاتفًا محمولًا يُمكن للمرء أن يتصل به عليه. إنه واحد من أولئك الأشخاص الذين لا ينظرون إلى بريدهم الإلكتروني إلّا إن انتظر شيئًا مهمًّا؛ أو بين الحين والآخر، كلَّما تذكر. عرف أن توأمه قتل نفسه بعد دفنه بفترة.

لا وجود لكلمة "الغد" عنده إلّا في القاموس. بالنسبة إليه، المستقبل مجرد مكان يصل إليه المرء بصورة مرتجلة، هذا لو وصل إليه أصلًا. لا يخطط لأي شيء. لا يُميز بين الأسباب والنتائج. يتساءل هل يمر الزمن لأنه يرى الأشجار تنمو، أم إن الأشجار تنمو لأن الزمن يمر. هكذا حال أسئلته كلها. ربَّما لهذا السبب لا يعثر أبدًا على إجابات لها.

يعرف أن نخلة متوسطة الطول تساوي أربعة أعوام، وأن عودًا من إكليل الجبل يعني نصف عام. يزرع الأشجار كمن يزرع الأعوام، لكنه لا يحصد شيئًا. يحتفظ بصعوبة بحبوبها تحسبًا -وتحسبًا فقط- لوجود غدٍ ما.

سأُسميه "هو" لأنني أفضل ألّا أنطق اسمه. إنه الكتاب الذي لم أُنه قراءته. إنه القصة التي لم تحظ بنهاية سعيدة ووددت ألّا يحكوها لي. أصررت كثيرًا على محو ذكراه، إلى درجة أنه يشق عليَّ إرجاعه إلى ذاكرتي. ذات يوم كان طفلًا مُحبًّا وهادئًا، وفي اليوم التالي صار غريبًا لا يكف عن الشجار. قلت له أكثر من مرَّة في نهاية مناقشاتنا: "سينتهي بك المطاف ميتًا على جانب الطريق".

علمت في تلك الأثناء أن قصص مدمني المخدرات واحدة، باستثناء تغيّرات طفيفة. هكذا كانت الحال مع خالي خابيير، فبسببه لم تترك ماما حقيبتها من يدها وهي في بيت الجدة حتى لدخول الحمام. لقد أصبح في نهاية المطاف معوزًا بعد دخوله وخروجه من وإلى مراكز إعادة التأهيل عدّة مرات، عقب أن جمع وفكك العائلة وبعد أن فقد كلُّ من فيها الأمل. كلَّما رأيت واحدًا منهم على الرصيف، فتحت نافذة السيارة وتفحّصت ملامحه بإمعان. بدا لي أنني أرى وجه خابيير في وجوه كل تلك الأطياف عديمة الشكل المبعثرة فوق الرصيف. إن العوز لا يحترم أحدًا.

ذات صباح سمعتُ جدتي تتحدث هاتفيًّا مع صديقتها. حكت لها أنها لم تعد ترتاد السينما، لأنها في المرَّة الأخيرة التي ذهبت إليها عرضوا قبل الفيلم إعلانًا ضمن حملة محلية عن إدمان المخدرات. ظهر خابيير راقدًا في الشارع وهو يتعاطى مخدّرًا ما. اضطرت جدتي إلى الخروج من القاعة ودخول الحمام لتقيء. حبست نفسها هناك وظلّت تبكي طيلة ساعتين هما مدة عرض الفيلم. لم تقص هذه القصة على أحد. أذهلتني الحكاية جدًّا، إلى حد الهوس، فظللت أبحث عن خابيير في كل المعوزين الذين يظهرون على الجانب الآخر من نافذة سيارتي. أدركت أنني رأيته فيهم كلهم، لأن المطاف ينتهي بهم جميعًا وهم جميعًا متشابهون: النحافة الحادة، والرائحة الزنخة، وتلك القذارة التي لا تزول حتى مع وضع الملابس في الغسالة لأنها باتت ملتصقة بجلودهم كوشم. يكتسب الوجه هيئة مثلثة: شكلًا هندسيًّا مسطّحًا عاجزًا عن التعبير عن أي إحساس، سوى الملل. الشعر المتشابك وغياب بعض الأسنان أو كلها. تزداد نحافة شفاههم لأنهم بلا أسنان وتغدو مجرد خط مستقيم نسي كيف يتقوس ليرسم ابتسامة. الابتسام ليس شأنًا يخصهم. لقد فقدوا أحد أهم الملامح التي تجعلهم بشرًا، ومع ذلك، فإنهم لا يصيرون حيوانات. ما من حيوان يكافح لإلحاق الأذى بنفسه، أو ليحطّ من قدره بمثل هذا السخط؛ ما من حيوان واحد.

لعابهم ثخين وأفواههم منكمشة، وعلى الرغم من تفاهة

أمر كهذا، فإن نشاطًا طبيعيًّا كتناول الطعام يبدو لهم غريبًا وبعيدًا عن الوضعية التي اكتسبوها. ما هي وضعيتهم؟ إنهم لا يعرفون، ولا أنا أيضًا. يبدون كأطياف فوق الأرصفة. يدوسهم الأشخاص الآخرون وهم يسيرون، إذ لا يُمكنهم رؤيتهم، أو بالأصح، لأنهم لا يودّون أن يروهم؛ فهم مسألة مزعجة. لا بد أن يتجاهلهم المرء ويتخيل أنهم مجرد أطياف يُمكنه أن يدهسها من دون تبعات. تنظيف نعل الأحذية لاحقًا أمر واجب، لإزالة الفتات المتسخ الذي التصق بها، وإضاعة الرائحة الزنخة بعطور باهظة. لا أعرف ما إذا كانوا موتى لا يزالون على قيد الحياة، أم أحياء على قيد الموت، لكن معرفة هذا الأمر ليست مهمة، فلا فارق بين هذا الأمر أو ذاك. إنهم ينظرون إلى الأشياء ولا يرونها، لأن نظراتهم ملآنة بالعدم وتعكس اضطرابهم الناجم عن ضرورة تعاطي المخدرات للاستمرار على قيد الحياة، مع أنهم يعرفون أن ما يتعاطونه يقتلهم.

أصيب خابيير بكل الأمراض. طُعن وضُرب وتعاطى جرعات زائدة، لكنه لم يمت. أتذكر أنني لم أفعل شيئًا حين قُتل أبي إلّا التساؤل لماذا ظل خابيير على شفا الموت طيلة حياته، وكفتْ أبي طلقة واحدة كي يرحل. مجرد طلقة! مات خابيير منذ فترة قليلة، وهو في عمر السبعين. مات عجوزًا في نُزُل كريه. لم تُقم له أي جنازة. لم يرغب أحد في مرافقته إلى مثواه الأخير. لقد نقصت الظلال التي يمكن السير فوقها على الرصيف ظلًّا آخر. لقد مات فعلًا. تنفس كل أفراد العائلة

بهدوء، لما علموا النبأ. لا أعرف أين هو مدفون أو ما إذا كان قد رمَّدوا جثته.

لطالما فاز أخي بجائزة أفضل قارئ في المدرسة قبل أن يُطرد منها، لأنه وضع مفرقعات في دورة المياه. ذات يوم كان طفلًا يلتهم الكتب، وفي اليوم التالي صار يسرق المال من محافظ الجميع. ذات يوم تباهى بنكاته الساخرة، وفي اليوم التالي أخذ سيارتي من دون إذن وأعادها إليَّ محطمة. ذات يوم كان رياضيًّا جيدًّا، وفي اليوم التالي لم يعد قادرًا على النهوض من فوق فراشه لأن ساقيه صارتا تخونانه. ذات يوم كان طفلًا وسيمًا شارك في عدة حملات دعائية، وفي اليوم التالي أصبح مشوّهًا إلى درجة أنني بتُّ عاجزة عن تذكره.

قلت له مسألة جانب الطريق قبل أن أستسلم، حين حسبت أن مواجهته لها فائدتها، لأنني فضَّلت أن أراه ميتًا على أن أراه مُلقى في الشارع ككلب جائع من تلك الكلاب التي يركلها الجميع حين تقترب منهم طلبًا للطعام. كنت قد قضيت عطلة الأسبوع خارج البيت وحين عدت لم أجد طبقًا واحدًا نظيفًا. احترقت القلايات، وامتلأت طاولة الطعام ببقايا أكل متعفنة، وانسكب اللبن على الأرض، وكادت القمامة أن تطفح. تشاجرنا. لا أزال أتذكر إيماءاته المبالغ فيها، ووجهه المشدود، وفمه الذي بدرت منه حركات غريبة كأنه لا يتسع لأسنانه، فاضطر إلى بذل مجهود كبير لترتيبها.

لكن أكثر ما أتذكره هي نظرته، لأنه حين تلاقت نظراتنا في إحدى اللحظات وسط الشجار علمتُ أنه لم يعد هو. لم أعرف من هو هذا الغريب الذي يتحدّاني بعينيه شديدتي السكون والجحوظ، إلى درجة بدا معها الأمر كأنهما ستنطلقان كرصاصتين. أشعر بالغثيان كلّما استحضرت هذه النظرة. أظن أن أحدًا لم ينظر إليَّ قطُّ بمثل هذه الطريقة، وأتمنى ألّا ينظر أحد إليَّ هكذا مرَّة أخرى. نظر إليَّ بكره، وبازدراء هائل ما زلت أشعر بثقله. قد يفكر المرء في أمور غريبة جدًّا تحت تأثير عينين مثل هاتين. لم أودّ أن أنظر إليه مرَّة أخرى على الإطلاق. بدأتْ تزورني كوابيس قوية جدًّا، إلى درجة أنني لا أزال أرتعش كلّما تذكرتها. في أحد هذه الكوابيس، مزقته. مزقت أخي بيديَّ العاريتين. فعلت الأمر بغضب لم أعهده. حين استيقظت، وجدت أن يديَّ لا تزالان مضمومتين ومشدودتين. ظللت أنظر إليهما من دون أن أتوقف عن البكاء.

أعتقد أنه أخرج أسوأ ما فيَّ. جعلني أنظر إلى أظلم أماكن داخلي. جعلني أجتاز أماكن أود ألّا أجتازها مرَّة أخرى أبدًا. مع ذلك، أعرف أنها موجودة، لأنه أظهرها إليَّ. تروقني مواساة نفسي بالتفكير في أن هذا يجعلني أكثر إنسانية وواقعية.

بعنا البيت وانطلقنا فارّين لتفادي نظرته، أو ربَّما أننا لم نعد نريد أن ننظر إليه. لم يعد يرغب هو الآخر أن ينظر إلينا. مرت سبع سنوات وصلتني فيها أنباء قليلة عنه؛ لا لأنها ليست موجودة وإنما لأنني لم أود أن يحكيها أحد إليّ. لم أرد أن أدرك شيئًا مما

يفعله: تعرضه إلى الاعتقال، أو الطعن، أو إفراطه في الـ"بيبا"*، أو أنهم أمسكوه ومعه كمية أكبر من الجرعات المسموح بها، أو أن رئتيه مريضتان جدًّا، أو أنه يوزع المخدرات في الجامعة، أو أن لديه كمية ضخمة من المزروعات، أو أنه يبيع أبحاث التخرج. كان ذكيًّا إلى درجة أنه قدر على إجراء أكثر من بحث تخرّج في العام الواحد، قبل بيعها إلى الطلاب السيئين. تصارع الكلّ من أجل شرائها.

العدم. ما وددت معرفته هو العدم. لم أرد أن أسمع اسمه، لكن التوقف عن سماع أنباء شخص ما، أو الرحيل من مكان ما حينما تشعر أنه يوشك على الوصول، أو الاختباء في المتجر، حين تعرف أنه في الرواق المجاور شيء، وأن تنساه شيء آخر. لم يَمضِ يوم واحد طيلة هذه السنوات السبع، إلّا ونبضَ فيها بابلو داخلي بهذا النبض المترقب الذي يعلن أن أيّ شيء وارد الحدوث في أي لحظة.

سبقني خيالي دائمًا بخطوة. لطالما انطلق بسرعة كبيرة إلى درجة أنني لم أقدر على اللحاق به أو التحكم فيه قط. قد أركض وأركض من دون أن أصل إلى أي مكان، لكنه يسبقني دائمًا ليفعل ما يجيده: الوصول إلى نهاية القصة التي لا بد أن تكون دائمًا مأساوية. كلَّما رنَّ الهاتف في وقت متأخر، افترضت أنه هو. كلَّما جاءني بريد إلكتروني من مجهول أو سار شخص ملثم ورائي على الرصيف، افترضت أنه هو. لو ظل غريب

(15) * نوع من العقّارات المخدرة في كولومبيا. (المترجم)

ما يراقبني أو انكسر زجاج السيارة إلى ألف شظية، فالأمر لم يرتبط إلّا به هو. كان موجودًا في كل الأنحاء، لأنه لم يخرج من رأسي قط. لقد عجزت عن اقتلاع خيالي من رأسي والتوقف عن تصور المآسي التي قد تحدث داخله وحده.

توقف خيالي عن حبْك القصص في اليوم الذي وقع فيه الأمر حقًّا. رنَّ الهاتف المحمول. أجبت وأنصتُّ باهتمام إلى صوت سانتي على الطرف الآخر من الخط. شرح لي ما حدث بصوته الهادئ كطبيب. الدراجة النارية، والحافلة، وكمين الشرطة. لا، إنه ليس ميتًا، لم يمت بعد؛ أخرجوه وهو فاقد الوعي من على جانب الطريق وذهبوا به إلى المستشفى. نعم، جاءت الضربة في الرأس مباشرة. لم يفهم أحد كيف لم يمت، أنا فهمت، كان بابلو قويًّا ومتهورًا إلى درجة تحدي الموت لمجرد التحدي رغم انعدام الأمل. اعتنى سانتي بإبلاغي بغلاظةٍ بتفاصيل السيناريوهات المحتملة. كلها فظيعة إلى درجة أن أقل الأمور سوءًا فيها هو الموت. سمعته من دون أن أفقد هدوئي ولو للحظة. لقد تصورتُ نهاية مشابهة لهذه مرّات كثيرة في رأسي. أنهيت المكالمة وبقيت واقفة، على الرغم من ارتعاش ساقيَّ. تنحيت جانبًا فوق الرصيف لكيلا أعرقل خطوات بقية المشاة. مضت السيارات ببطء. لو أن الأجواء قد امتلأت بغيوم ترابية ودوامات من الأوراق الجافة، فمرد الأمر هو رياح سبتمبر. دفعني الناس وهم يمضون في طريقهم لكنني لم أتحرك. بدا الأمر كأنني شجرة هائلة وثقيلة مزروعة فوق

الرصيف. توقفت سيدة أمامي وسألتني عن شيء لا أتذكره، لأن عقلي ارتبك ولم تحتجْ عيناي إلّا إلى أن ترمشا فقط كي تطردا دموعهما.

لا. لم أكن سأبكي. لم أرد أن أبكي. وجب عليَّ أن أصفي ذهني وأن أمعن النظر في كل السيناريوهات المحتملة، وأن أحسب الأوراق التي ستكون من نصيبي. لم يبد أيٌّ منها جيدًا. لم أرد أن تستمر مشاركتي في هذه اللعبة. لا، رجاء! لا تعتمدوا عليّ. سأنسحب، وكأن المرء قادر على الإفلات بهذه السهولة من لعبة الحياة! لا تعمل الأمور بهذه الصورة، إنها ليست بسهولة النهوض من أمام طاولة لعب في أحد الكازينوهات والذهاب إلى البيت ونسيان الموضوع بعدئذٍ بساعات أمام شاشة التلفاز، ليست بسهولة المغادرة والهروب مما يزعجنا سواء كان المرء محطمًا أم لا؛ لا يُمكن لأحد أن يغادر حياته أو اللعبة التي فرضتها عليه. لا مناص من الوصول إلى النهاية، حتى وإن لم يتمكن أحد من تحديد ماهيتها أو مكانها أو كيفية الوصول إليها. ما من تعليمات موجودة بخصوص هذا الصدد، ما من وجود لها في أي مكان.

شعرت بأشعة الشمس وهي تحرقني في جلدي، وبرعشة تسري في جسدي كله من تخيل الكيفية التي ستتغير بها حياتي لو أنني فجأة بت مضطرة إلى رعاية عود من الكرفس*.

(16) * قد يبدو التشبيه غريبًا نوعًا ما بالعربية، لكن الصفحات المقبلة ستوضحه. (المترجم)

لا أعرف ما الذي كنتَ تفكر فيه. حقًّا، لا أعرف. لقد وقفت مشلولة، حين رنَّ هاتفي وتلقيت النبأ. عجزت عن نطق أي عبارة بسبب كمية الأفكار التي هبت كالريح واجتازت رأسي في ظرف ثوان. كل ما فعلته هو تكرار كلمتَي: "بابلو؟ دراجة نارية؟ دراجة نارية؟ بابلو؟" كأنثى الببغاء الموجودة في البيت. في الواقع، لقد رأيتكَ ترتكب كل أشكال الحماقات، لكن شخصًا منعدم المسؤولية مثلك لم يكن أمامه أي فرصة للخروج سالمًا من قيادة دراجة نارية، ولا أي فرصة على الإطلاق.

علمتُ هذا الأمر. علمتْهُ ماما أيضًا. علمه إخوتي. علمناه جميعًا. لم تكن لدينا أدنى فكرة عن أنك تقود دراجة نارية، لأن خمس سنوات كانت قد مضت من دون أن نراك. استخدمتُ أصابعي لعدها. ما المشكلة؟ لم أكن ألمعية مثلك قط، لم أكن ذكية، لم أدرس القانون؛ لم أتخرج مع مرتبة الشرف. في الحقيقة، لطالما كنتُ واحدة من بقية الناس، ومع ذلك لم أضطر إلى تعاطي المخدرات لتجاوز الأمر. بالمناسبة، كل الحشيشة التي سرقتُها منك ألقيتها في القمامة. كأن تلك الكمية القليلة

التي أنقذتُك منها كانت ستنتشلك من هذه الهوة العميقة التي ظللتَ تبحث عن قاعها! "بابلو؟ دراجة نارية؟ دراجة نارية؟ بابلو؟". ظلَّ عقلي يحاول استيعاب نبأ الحادث وهو يتخيل جسدك المحتضر الملقى على جانب الطريق.

يُفترض أنك كنت لا تزال حيًّا حين وصلتَ إلى المستشفى، لكن أي حياة؟ إن عودًا من الكرفس كان ليصبح حيًّا أكثر منك. لقد خرج مخك من مكانه من قوة الضربة وتبعثر داخل أذنيك. أعترف بأنني قلقت أكثر على نفسي أنا وماما. قلقت من مجرد التفكير في أننا قد نضطر إلى العودة إلى البيت معك -يا عود الكرفس- والاعتناء بك لما يتبقى من حياتنا: تحميمك، وإلباسك، وحلاقة ذقنك، وتغيير حفاضاتك، وتغذيتك عبر مسبار. أقصد في النهاية كل تلك الأعمال المزعجة التي ينتهي المطاف بنا نحن معشر النساء لنتولاها لسبب ما لا أفهمه. قلَبتْ الفكرة المجردة أمعائي وتقيأتُ في الممر.

دُهشتُ كثيرًا من رؤيتك، أقسم لك! بدوت شخصًا آخر. هل كانت قد مرت خمس سنوات حقًّا من دون أن يرى فيها بعضنا بعضًا؟ احتسبتها مرَّة أخرى واستخدمت أصابعي مجدَّدًا. لا. إنها سبع سنوات في الواقع. كنت نحيفًا جدًّا إلى درجة بدت معها أسنانك ضخمة جدًا، أو بالأصح ما بقي منها لأنه لا يُمكن لأحد أن يصطدم بحافلة من دون أن يفقد سنًّا واحدة.

أيضًا، قبل اليوم لم أرك بلحية أو بشعر طويل قط. لم أرَ قسمات وجهك وهي مستكينة، أو تجاعيدك الناشئة أو جلدك المدبوغ قط. في الواقع. لم أرك كرجل قط. راقتني أكثر صورتك حينما راهنتَ على أن تصبح محاميًا. راقتني أكثر وأنت طفل. أجل. هذه هي الصورة التي سأحتفظ بها. سأتظاهر بأنني لم أرك، وأنك لم تمت، وأنك لم تكبر، وأنك ستظل دائمًا الطفل الحنون الذكي الذي يطل بوجهه بين الفينة والأخرى داخل ذكرياتي.

قلت لماما حين اتصلتُ بها ليلًا من المستشفى:

– لقد مات يا ماما. مات. أتفهمين؟ كان كعود كرفس، والآن لم يعد كذلك. الآن هو والعدم سواء.

انتظرنا طوال المساء أن يظهر طبيب الأعصاب ويعلن وفاته دماغيًّا كي نتمكن من فصله عن الأجهزة، لكنه مات قبل ذلك. لم يحب بابلو أن يساعده أحد قط. ظل جسده البارد والمتيبس ممددًا فوق الفراش المصنوع من الصلب غير القابل للصدأ. رأيت إحدى ساقيه من قاعة الاستقبال. لم أتمكن من إبعاد نظري من عليها وأنا أتساءل أين ذهبت ساقا بابلو النحيفتان اللتان أعرفهما. ظلت ماما صامتة على الطرف الآخر من الخط. تخيلتها ترقد مستندة إلى فراشها وهي تنظر إلى السقف بعينين زجاجيتين. ربَّما ارتعشت شفتاها قليلًا، ليس بسبب الامتنان، وإنما لأن كل شيء فيها يرتعش مؤخرًا. تبدو في هذا الأمر مثل جدتي التي وجب عليها أن تشرب القهوة في قدح ضخم لكيلا تنسكب منها.

تساءلتُ هل ستترك الدموع تنساب على وجهها، أم أنها ستتمكن من حبسها. خلصتُ إلى أنها ستحبسها بالتأكيد.

إنها خبيرة في هذه الأمور. قلت لها قبل إنهاء المكالمة أن تترك لي مساحة فارغة على فراشها لأنني أرغب في النوم إلى جوارها. تمنيت أن أجدها مستيقظة بعد الانتهاء من إجراءات المستشفى. تذهب لتنام في الأيام العادية بعد وضع الدجاج في الحظيرة، لأن ألم ظهرها يتهيج في تلك الساعة تحديدًا. لكن هذا ليس من ضمن الأيام العادية، بل وبعيد كل البعد عنها. أنهت المكالمة من دون أن تنطق ولو نصف كلمة. يعني هذا الأمر في لغتها: "نعم. تعالي لتبقي معي". أعرفها جيدًا لأنني مثلها. لا أتجرأ على طلب شيء من أحد. أحب أن يفعل الناس الأمور بناء على مبادرتهم الشخصية وليس لأنني أطلبها منهم.

نجحنا في الخروج من المستشفى قرب منتصف الليل. قاد سانتي السيارة. إنها مسألة تُصيبني دائمًا بالتوتر. إنها على الأرجح مجرد فكرة داخل رأسي، لكنني لا أشعر أبدًا بالهدوء وأنا إلى جواره، فهو يُشغل الراديو بصوت أعلى مما أتحمله، ولا يروقني أيضًا نوع الموسيقى التي يسمعها. يظن نفسه داخل ملهى ليليٍّ في كل الأوقات.

أمطرت السماء. أتذكر الأمر جيدًا بسبب الصورة التي لمعت بها أضواء السيارة الموجودة أمامنا كلَّما ضغط قائدها على المكابح، ولأنه من النادر جدًّا أن تُمطر في سبتمبر. كما ترفع هبات الريح الطائرات الورقية، فإنها تأخذ معها الغيوم بأمطارها، بعيدًا. تساءلت هل سيصل الوابل إلى بيت ماما. إنها مسألة تجعلها سعيدة لأن ماء الأمطار جيد جدًّا للنباتات.

على أي حال، لا بد أنها قضت المساء كله وهي تروي الحديقة وتفكر هل سيموت بابلو، أم أنها ستضطر إلى رعايته بقية حياتها، كأنه مجرد نبات آخر.

سألني سانتي:

- ما الذي تفكرين فيه؟

كذبت:

- لا شيء.

وددت أن أقول له إنني سعيدة بأنها تمطر، لكنني فكرت بعدئذٍ في أن سانتي ليس لديه أدنى فكرة عن الأمطار أو البساتين. يَقدر أشخاص مثله على إنقاذ حياة البشر، لكنهم لا يعرفون أن نباتات معينة مثل الريحان لا يُمكنها أن تتوقف عن الإزهار وإلا ماتت. إنها أصلًا مسألة متناقضة، لأن أزهارها هي أيضًا عقوبتها ولا بد أن تُقطع لكيلا يموت النبات.

قال:

- دابيد لم يظهر بعد.

قلت:

- لا يبدو لي أمرًا غريبًا.

بقينا صامتين فيما تبقى من الطريق، وظل الراديو يبصق أغانيه بعلو الصوت. فكرت في دابيد الذي كان يسافر في مكان

ما في أوروبا جاهلًا النبأ. لم نود أن يعرف نبأ وفاة توأمه عبر البريد الإلكتروني، لكن في النهاية علمه بهذه الصورة بعد يومين. كان الوقت قد تأخر على أن يأتي، ومبكّرًا على أن يُكمل رحلته بهدوء.

لما وصلنا لاحظت أن نور غرفة ماما مضاء، أما توماس فحبس نفسه في غرفته المظلمة مع سبق الإصرار. لم تتلألأ حتى شاشة حاسوبه. إنها مسألة نادرة جدًّا، فحياته مرتبطة بالواقع الافتراضي أكثر من الواقع نفسه. أتساءل كثيرًا ما إذا كان توماس مجرد هولوغرام، ولهذا لا يكبر أبدًا.

نزلتُ راكضة من السيارة ورقدتُ إلى جوار ماما. أحسستُ بأنها طفلة مرعوبة ومتوترة مثلي وأنا في الحادية عشرة؛ نفس الطفلة التي اضطرت إلى النوم مع أمها حتى سن الرابعة عشرة. الفارق الآن أنها هي المرعوبة والمتوترة. فكرتُ: "هكذا إذن تتغير الأدوار". ارتعشتُ من البرد. ارتعشتْ هي الأخرى. لا أعرف ما إذا كان مرد الأمر توترها، أم البرد، أم ذلك الإرث الذي تركته لها الجدة. ربَّما ارتبطت المسألة بالأمور الثلاثة معًا.

قلت لمجرد القول:

- إنها تمطر.

قالت لمجرد الرد:

- إنها تمطر.

مكثنا في صمت ونحن نسمع قطرات الماء وسقوطها فوق سطح المنزل. علمتُ أن ظهرها يؤلمها بسبب الطريقة الحذرة التي تحركتْ بها، لكنها لم تقل شيئًا. إنها لا تقول شيئًا أبدًا، حتى وإن كانت ستموت. نظرتُ إليها بطرف عيني وأدركت أنها بكت، أدارت رأسها إلى الجانب الآخر، لما لاحظت نظرتي. لم يرقها قطُّ أن يراها أحد تبكي.

قالت لتُشتت انتباهي بأي شيء آخر غير عينيها الزجاجيتين:

- قضيتُ المساء كله وأنا أروي البستان.

- إذن، لا بد أن النباتات سعيدة بمقدار الضعف.

- لا تصدقي أمرًا كهذا. كل أشكال الإفراط قاتلة، حتى الإفراط في شيء غير مؤذٍ كالماء.

ثم سألتْ:

- هل ظهر دابيد؟

- ليس بعد. لو لم يظهر حتى الصباح، فسنرسل له بريدًا إلكترونيًّا.

نهضتُ لأرتدي المنامة وأغسل أسناني. بعدئذٍ، رقدتُ بين الأغطية. لم يتمنَّ بعضنا لبعض ليلة سعيدة لأنه لا سعادة في الليل، تيبستْ كل واحدة في جانبها وهي تحاول إبعاد الشياطين

التي تسعى إلى صعود الفراش. أطفأتُ النور، لكننا لم ننم. علمتُ الأمر بسبب إيقاع تنفسنا، المضبوط جدًّا، والمُسيطَر عليه جدًّا. شهيق. زفير. شهيق. زفير. أعرف أننا نظرنا إلى السقف بعينين مفتوحتين، على الرغم من الظلام، وأننا وددنا أن نتعانق، وأن نبكي حتى تنتهي دموعنا، لكننا لم نفعل هذا الأمر. ولَّد موت بابلو داخلنا مشاعر متناقضة، ولم نعرف كيف يجب أن تكون أحاسيسنا، وشعرنا بالاستياء من جهلنا.

سألتْ بعدئذٍ ببرهة:

- هل سيرمِّدون جثمانه؟

- الأمر غير ممكن. عمليًّا، إنها جريمة قتل. لقد قتله سائق الحافلة.

بمجرد أن انتهيت من نطق هذه العبارة، لاحظتُ مدى قسوتها.

بقينا في صمت مجدَّدًا. أعرف أنها فكرتْ في أن سائق الحافلة لم يقتله، وأن بابلو اصطدم بحافلته فقط لأنه كان يفر من كمين الشرطة الذي حاول إيقافه. أعرف أيضًا أنها فكرت في أنها لا تود أن ترى تابوتًا مرَّة أخرى في حياتها، وألا تتعامل مع أي رفات وألا تذهب إلى قاعات تعازٍ ساهرة أو قداديس. لم تود أن تنظر إلى أحد أو أن ينظر أحد إلى وجهها ويقول: "حبيبتي يا مسكينة، كل الأمور ستكون بخير". "فوضي أمرك إلى من في السماء". "ربي يعطيكِ القوة". لم تود أن تتلقى

زهورًا، ولا أن يتصل بها أو أن يزورها أحد. أعرف الأمر لأننا سبق أن مررنا بهذه المسألة ولم نكن مستعدتين لتكرار هذا المشهد. أعرف الأمر لأنني أيضًا فكرت فيه، ولأن أفكارنا في الغالب متوافقة.

نمنا قليلًا. تحركنا، بانزعاج، طوال الليل. حلَّقت الشياطين بين عوارض السقف. ربَّما هي الوطاويط التي اعتادت أن تدخل عبر النافذة بحثًا عن البعوض. تبدو لي كريهة، لكن ماما تدافع عنها وتقول إن كل المخلوقات لديها دور معين للحفاظ على الاتزان الطبيعي للكوكب. لا تغلق النافذة أبدًا لأنها طبعًا لم تحدد بعد ما هو دور البعوض. ربَّما دوره الوحيد أنه غذاء للوطاويط. علمتُ والشمس تشرق أنها تحلم بكوابيس، لأنني سمعتها تئن. هززتها برقة كي أوقظها.

سألتني بعينين متسعتين إلى أقصى حد:

- ما الأمر؟

ظللت صامتة، أما هي فبدت بعد مرور عشر دقائق كأنها تذكرت كل شيء، فامتلأت عيناها بالدموع. أغمضتْهما وهي تحاول ألّا ألاحظ، ثم تظاهرتْ بأنها ستنام، لكننا كنّا قلقتين بصورة كبيرة منعتنا من الأمر. لم نود أن تشرق الشمس، لكننا لم نقاوم ظلام الليل أيضًا.

بدأت الهواتف الخلوية ترن قبل السابعة صباحًا. ربَّما رنت أصلًا قبل ذلك بقليل. أطفأناها من دون أن نتفق ومن دون أن

نقرأ رسالة واحدة. علمنا أننا جميعًا لن نذهب إلى أي دفن، أو على الأقل أنني أنا وهي لن نذهب. لقد ودَّعنا "الأسود" منذ فترة طويلة. لما نهضنا، شعرتْ كل منا بأن جسدها ثقيل ككومة من الأحجار. ظل سانتي نائمًا في الغرفة المجاورة، أما توماس، الذي يستيقظ دائمًا في وقت مبكّر، فكان قد قدَّم الذرة إلى الدجاج والموز إلى الببغاوات، والطعام إلى الكلبة والقطة، وتكوّر ناعسًا في فراشه إلى جوار "سيراتشا". ألقيتُ نظرة ورأيت أنها موجودة فوقه وتلعق شعره الأحمر بلسانها الذي يشبه ورق الصنفرة.

أعددنا كمية كبيرة من القهوة وجلسنا بمفردنا تحت التعريشة لنشربها. فكرتُ حين رأيتها تبذل جهدًا كبيرًا لكيلا تسكبها: "عليَّ أن أشتري لها قدحًا أكبر من هذا". حينذاك، كانت سخونة الشمس قد ازدادت، فاصطفت الطيور فوق شجرة الموز. بالنسبة إلى الببغاوات، كانت قد اختفت منذ فترة بين الأشجار.

قالت:

– من الغريب أن طيور الشاشالاكا لم تتنبأ بسقوط الأمطار في الليلة الماضية.

فقلت:

– أحيانًا لا نهتم كثيرًا بالإشارات.

نهضتُ والقهوة في يديّ، أما هي فظلت جالسة وهي تُصفر للطيور المحاكية. سرتُ حافية فوق العشب وشعرت بأن النباتات تدغدغ قدميّ. سليتُ نفسي وأنا في الطريق بأخذ ثمار الجوافة الحمراء الصغيرة. سقطت ثمار الفيجوة* أرضًا بسبب الأمطار. لاحظتُ كم تؤلمني كتفاي ورقبتي وأسناني. لا بد أنني ظللت أكز عليها طوال الليل. توجهت إلى البستان لرؤية ما إذا كانت النباتات قد غرقت بسبب الماء الزائد.

لما وصلت، رأيت أنّ الريحان مزهر. الأمر نفسه مع الكرفس، لكنني لم أود أن أمضي لأتفقدهما. كان الوقت قد تأخر جدًّا على قص زهورهما.

(17) * فاكهة موجودة في البرازيل والأرجنتين وكولومبيا لونها أخضر وفي حجم ثمرة البرقوق تقريبًا. (المترجم)

استغرق الأمر منا عشر سنوات لبيع البيت الذي عشنا فيه معًا إلى أن توقفنا عن تحمل بعضنا بعضًا. الآن، بما أنني أفكر في الأمر جيِّدًا، سأقول إننا فررنا تدريجيًّا منه حين صار تعايشنا مستحيلًا. اشترى سانتي شقة. انتقل دابيد إلى لندن. سلم بابلو نفسه إلى المخدّرات. عادت كاتالينا إلى قريتها. انتقل توماس وماما إلى المدينة، وأنا ذهبت للعيش مع أول شخص اقترح عليَّ هذا الأمر. مرت عشر سنوات من دون أن يفعل أيٌّ منا شيئًا لبيع البيت، وخلال هذه الفترة لم يسكنه سوى الهجران. أردنا ولم نرد أن نبيعه. في بعض الأحيان، تكون الأمور هكذا، فتستغرق القرارات المهمة وقتًا.

في النهاية دفعَنا احتياجنا إلى المال إلى الاتفاق على ضرورة بيعه، لكن كلَّما أوشكنا على إتمام الصفقة، أراد بابلو أن ينتزع لنفسه أيَّ أفضلية وطالب بمبالغ إضافية للتوقيع على العقد. كان قد وصل إلى مرحلة فقد فيها الحياء، وحينما يفقد المرء حياءه، لا يقدر شيء على إيقافه.

أتذكر الليالي الصامتة التي تسلل فيها دخان الحشيشة عبر نافذتي كالضباب. تلاصقت غرفتانا، ولاحظتُ أنه اعتاد

أن يدخّن وصولًا إلى مراحل الهُذاء والمنازعة التي ينتهي به المطاف فيها وهو يضرب نفسه في الحائط. إنها تلك الليالي الوحيدة التي وضعتُ فيها رأسي تحت الوسادة وتحولتُ فيها إلى كرة صغيرة بائسة فوق حاشية فراشي. ليالي الأرق والدموع التي تساءلتُ فيها هل يستمتع أخي بدوخة السير فوق حافة الهاوية أم إنه يودُّ أن يلقي نفسه في أعماقها؛ هل يهرب من شياطينه أم يسعى لرؤيتهم من جديد.

بِيع البيت لبعض القساوسة، وفي موعد تسليم العقَار لم يودّ أحد أن يتولى هذه المسؤولية. بعد استبعاد كل الخيارات المتاحة، بات الأمر من نصيبي. كان يوم خميس في شهر أبريل. بدت السماء غائمة، وامتلأت السحب بالأمطار التي أوشكت على السقوط منها. ذهبتُ في وقت مبكر لتفادي زحام الطريق السريع. قدتُ ببطء كمن يذهب لملاقاة حب قديم. شعرت بالتوتر. عضضت أظافري إلى أن تراكمت بقايا الدم عند قُشيراتها.

بعد نصف ساعة وجدت نفسي أصعد المسار الحجري. كانت الحشائش الضارة قد استولت عليه. في تلك الأثناء، هزت أشجارُ الصفصاف بقوة أغصانَها الطويلة النحيفة القادرة على تحمل لطمات الريح. لطالما قالت أمي إن مرونة أغصانها تحديدًا هي ما يسمح لها بالمقاومة من دون أن تتهشم، وأن تلمس الأرض من دون أن تنكسر إلى نصفين.

صففتُ السيارة أمام الباب الرئيسي. سقطت شجرة

الأروكاريا لأن أغصانها، على عكس الصفصاف، ضخمة ولا تتحمل ثقلها. آلمني الأمر جدًّا لأن أبي زرعها قبل وفاته فكبرنا معًا. لما توقفتُ عن النمو، استمرت هي فيه بإيقاع مدوخ، وتخيلت آنذاك أنها لن تتوقف في محاولتها للمس السحاب، لكنها باتت ترقد الآن على الأرض؛ مثل جذع متعفن خرجت منه كل أصناف الحشرات حين حاولتُ تحريكه.

نظرتُ بعدئذٍ إلى البيت الذي كبرت فيه. كنت لأقدر على التجول فيه كله بعينين مغمضتين. نظر البيت إليَّ ونظرت إليه، ونحن نحاول أن نخمّن عبر ملامحنا ما جرى في كل سنوات الغياب. خمّنت وحدته وخواءه، فأي بيت من دون سكان ليس سوى مجموعة من الجدران الطوبية وقراميد الفخار التي تحرقها الشمس وتنحتها الأمطار في نهاية المطاف. لا أكثر ولا أقل.

لم أتجرأ على الدخول. وددت أن أتمشى أولًا في الأنحاء كمن يتفادى الجوهر، لأنه لا يعرف ما إذا كان مستعدًّا أم لا لمواجهة لُبِّ الموضوع. بدت الأروقة الخارجية أطول وأفرغ من أي وقت مضى، ولأن النباتات لم تعد موجودة، بدا الأمر كأنها قد اتسعت لتصبح طرقًا سريعة لا تُفضي إلى أي مكان. وصلتُ إلى الكشك الذي امتلأ بالخواء، وألقيت التحية منه على أشجار الغار، بجذورها القوية الثائرة التي كسرت كل الفسيفساء والبلاط. ظهرت الحشائش الضارة من داخل الشقوق وتذكرتُ أبي.

بدا الكشك ضخمًا لأنها أول مرَّة لا يمتلئ فيها بالناس. لطالما راق أمي الرقص فيه، إذ اعتادت أن تقيم هناك حفلات تمتد حتى الشروق، لكن تسيَّد الصمت كل شيء في تلك اللحظة. يكتسب الصمت نفسه نبرة غريبة حين يسكن أماكن أصلها هو الصخب. بين الفينة والأخرى، سُمع همس خفيف لأوراق أشجار جافة رقد بعضها فوق بعض في الأركان، وهي ترقص في صمت مع الريح.

حسبت أنني لمحت شيئًا حيًّا في حظيرة الدجاج، ولما نظرتُ إليها، خرج جرذ يركض من القش الذي اعتاد دجاجي أن يضع بيضه فوقه. بدأت أبكي، من دون أن أعرف السبب، وعيناي تتابعانه وهو يمضي في اتجاه الجدول قبل أن يتيه وسط الأجمة. إنها تلك الأجمة التي ابتلعت كراتنا وألعابنا والملابس التي أطاح بها الهواء من فوق السلك، الذي لطالما وضعتها أمي فوقه لتجف ولتتشبع برائحة الشمس.

نظرت إلى الجدول بحثًا عن السلاحف، لكنها كانت قد فرت أيضًا. لم أر سوى النسيان والحشائش الضارة. التصقت نباتات شوك الجمال بجوربي وجرحت كاحليّ. نقنقت الببغاوات التي حررناها حين تركنا المنزل. تردد صدى نقيقها متعدد الألوان بين الجبال وارتد إلى أذنيّ. كأنها تحرس شيئًا ما، ظلت الأشجار ثابتة ووارفة في مكانها، بعد أن تغذت على مدار سنوات من النسيج النباتي المتراكم والفاكهة المتحللة، لأن أحدًا لم يكن موجودًا لجمعها.

لم أتخيل قطُّ أن فيض الخضرة قد يحتضن كل هذا الأسى. ضم اللون الأخضر فوق نظيره الأخضر كل الألوان وكل الأشكال وكل الروائح. ازدادت خُضرته في غيابنا، أما نحن، على النقيض، فشحبنا كضفادع بساتين الموز، التي من فرط بياضها تصبح شفافة، ومن فرط شفافيتها تصبح غير مرئية، ومن فرط طابعها غير المرئي يصبح مآلها أن تدهسها خطوات مجهولة.

تسلّحت بالشجاعة ودخلت. عشقت الضياء الداخلي اللا نهائي الذي كان ممكنًا فقط بفضل أربع وخمسين نافذة لم تعرف قطُّ ما الذي تعنيه كلمة ستارة، وأيضًا بسبب الفناء الداخلي المليء بالزهور الثنائية وأفرع اللبلاب التي نمَت خارجة عن السيطرة لتستحوذ على الأعمدة وعلى عوارض السقف وعلى الشرفات وعلى كل شيء.

شقت شجرة بابايا مليئة بثمار الفاكهة طريقها بين الأحجار المتلاصقة الموجودة في الفناء الداخلي. أفترض أنها نمت من بذور سقطت من الببغاوات في السنوات الماضية. حين ترغب الحياة في شق طريقها، لا يقدر شيء على منعها. بدا غريبًا الشعور بكل هذه الحياة غير المرئية وهي تنبض داخل هذا البيت الذي كلّما مرّ الوقت لم يعد لي. صارت الحيوانات والنباتات ملّاكه. يعرف المرء المكان بمجرد تعرفه على ضوضائه، وأنا لم أتعرف على أي منها. للحظة، شعرت بكوني دخيلة، أو غريبة تراقبها أعين خفية تختبئ بين اللبلاب.

جلست لأبكي إلى جوار المسبح ومياهه المتعفنة المليئة بشراغيف ستتحول إلى علاجيم بعد أمطار أبريل. بينما أبكي سمعت ضحكات لأطفال تتردد عبر الأروقة، وصافرات لطيور محاكية، وتوبيخ من ماما. سمعت الشجارات الطفولية، وموسيقى الرقص والحفلات، والأغنيات التي اعتدنا أن نغنيها. سمعت صوت أبي الذي أسكتته رصاصة منذ فترة وظننت أنني نسيته. رأيت وجهه. انطبعت فوقه الإيماءة التي ودعني بها في اليوم الذي قُتل فيه، من دون أن يعرف أي منا أن هذه آخر مرَّة سأراه. سمعت ضربات أخي في الحائط وهو معذب من شياطينه وهلوساته، لكنني في الوقت نفسه رأيت طيفه المبتهج الصاخب، في الفترات التي كان فيها طفلًا سعيدًا.

أعجز عن تذكر آخر وجه لبابلو، بل فقط ما تبقى من وجهه الممتقع الهامد وسط البرد فوق فراش المستشفى، بعد أن فازت أشباحه بالمباراة واصطدم بحافلة تتقدم على الطريق بكامل سرعتها. إنه وجه بعيد ومختلف عن ذلك الموجود في ذكرياتي، لكنني تعرفت عليه لأنه احتفظ حتى يوم مماته بتلك الملامح المضطربة، وهذه النظرة الحزينة والمغمومة التي عرفتها جيدًا.

رجوت روحه أن تأتي لاسترداد أفضل ذكرياته، لأنها كانت فعلًا موجودة، ويمكن أن يشعر بها المرء في كل أرجاء البيت، وهي تتراقص بخفة، كجزيئات التراب.

يقولون إنه حين يموت المرء، تمر حياته أمام عينيه. حسنًا، أنا متُّ في هذه اللحظة. هاجمتني ذكرياتي كأنها خناجر: آلمتني، وأسعدتني، ومزقتني، وكونتني مجدَّدًا، وانتزعت أحشائي، وبثت فيَّ الروح.

ظنًّا مني أنني بمفردي، بكيت من دون سلوان. تساقطت الدموع فوق الحوض ورنت كأجراس فضية. الماء فوق الماء. ذاب جسدي في مجموعة من التشنجات وأنا أحاول استعادة أنفاسي، وحينئذٍ شعرت بيد تلمس كتفي برقة. إنه أحد الكهنة الذين ذهبت لاستقبالهم في البيت. مد إليَّ منديله وبقينا في صمت. سكنت العصافير فوق أفرع اللبلاب وهي تشعر بالأمان، فيما نظر سنجاب إلينا بفضول من فوق السقف، منتظرًا أن نغادر كي يهاجم ثمار البابايا الناضجة.

أخذت وقتي لأهدأ، وأنا أعرف أن الكهنة مدربون على فن أن ينتظروا في صمت أشياء لا تحدث أبدًا. حين شعرت بأنني بت قادرة، نهضت وسلمت له المفاتيح قائلة: "إنه بيتك"، لكن كلًّا منا عرف أنه ليس كذلك. لا يُمكن أن يصبح هكذا لأن ثمانية وعشرين عامًا من الذكريات لا تُسلم بمفتاح. ابتسم وقال لي إنه سيصلّي من أجلنا جميعًا. شكرته لأنني كنت قد تعبت من الصلاة منذ سنوات كثيرة.

لما غادرنا البيت، فكّكتْ ماما الدفيئة وأهدت كل الأوركيد الموجود فيها تقريبًا. فتحتْ الأقفاص في اليوم ذاته وطارت عصافير الكناري وطيور الدرة وببغاوات "آرا". وصلتْ إلى شقتها الجديدة في المدينة مع أغراض قليلة جدًّا. إضافة إلى نباتاتها، أهدت كل ملابسها وأثاثها تقريبًا. كفاها عمرها لتعرف أن أهم الأشياء الموجودة في الحياة ليست أشياء فعلًا، وأن ما يهم المرء حقًّا، لا يُمكن لأي حقيبة أن تحمله.

لهذا وصلتْ إلى المكان الذي ستسكنه من دون متاع تقريبًا. وصلت ومعها أقفاص الطيور المحاكية وأحب زهور الأوركيد إلى قلبها. كان الاختيار صعبًا، لأنها أكنّت لها جميعًا مودة كبيرة، حتى تلك التي لم تزهر منها، أو بالأخص تلك الأخيرة، لأنها علمتها معنى كلمة "الصبر". يتلقى المرء أفضل تعليم في حياته من أقل مكان محتمل.

بعد عدة أسابيع من العيش هناك، اختبرتْ ما شعرت به الطيور المحاكية داخل الأقفاص، لهذا قررت ذات صباح تحريرها. مضت وهي تغرد الألحان التي علمتها لها من دون أن تنظر خلفها. لم تعد قط، على الرغم من أن ماما لم تتوقف

عن شراء التين لتركه فوق أطر النوافذ. لا تقدر الطيور على النظر إلى الوراء. أفترض أنها تحتاج إلى أن تنظر نحو الأمام كي تطير من دون أن تصطدم بالنوافذ، ومع ذلك، فإنها تفشل، لأن الحياة مربوطة بأن تفشل ذات مرَّة. كلَّما اصطدمت، كرست هي ساعات كاملة لإنعاشها بالماء المحلى بالسكر.

لطالما جلستْ داخل شرفتها الصغيرة لشرب القهوة، في أصباحها الدافئة المنعزلة، وإذا بها تصفر بحثًا عن أي إشارة حياة منها، لكنها لم تحصل قطُّ على أي جواب. في تلك المرة، لم تستسلم إلى الحزن كي يُضنيها. لقد باتت معتادة على الرحيل النهائي. ما لم تعتده هي المدينة. ما الإنسان إلّا الأماكن التي يفتقدها، لا تلك التي يسكنها، وانتمت أمي إلى الغابات، كحال الطيور. لا يستطيع الأشخاص القادرون على الإعجاب بنمو الزهور في الشقوق وجمع الحبوب وبذرها أن يحيوا وهم محاطون بالأسمنت، لأنهم مؤمنون بالغد، حتى وإن لم يعرفوا ماهية هذا الغد.

ذات يوم أعلنت أنها ستعود لتعيش في الريف، فارتعبت أنا وإخوتي. حاولنا أن نوقفها، كأن إيقاف امرأة مثل أمي أمر ممكن أصلًا. إن العيش معها فترة طويلة وعدم إدراك أنها قادرة على كل شيء يعني عدم معرفتها بشكل كامل، وهذا أكثر ما يروقني في أمي: قدرتها على إدهاشنا واستحالة تخمين حركتها المقبلة.

تراكمت السنوات في يديها الخشنتين كلحاء الصنوبر، لأنها ظلت ممتلئة بالثآليل من كثرة العمل في الحديقة، وتراكمت أيضًا في النمش الذي لطخت بقعه جسدها بالكامل كعروق الخشب التي تحدد طول عمره وتقلبات الزمن. تراكمت في ذراعيها المليئتين بالعروق التي تشبه جدًّا جذور الأوركيد التي تمتلكها؛ وبالمثل في جلدها، لقد تراكمت في جلدها الذي بات مؤخرًا أرق من بتلات الزهور. لكنها تراكمت قبل أي شيء آخر في عظامها التي استسلمت للهشاشة، لأنه يستحيل أن تحظى امرأة بثلاثة توائم من دون أن تضحي بعظامها في المحاولة.

يؤلمها ظهرها وتؤلمها مفاصلها، لكنها لا تشكو أبدًا. لا يمكن لأحد أن يقول إنه سمعها تشكو ذات مرَّة. لديها أسبابها التي دفعتها لتصبح هكذا. ربَّما لهذا لا يُمكنها أن تطيق الناس الذين يشتكون من مجرد حماقات. ربَّما هذا السبب وليس أي شيء آخر ما جعل لديها صديقتين فقط. لا تطيق أحدًا تقريبًا، باستثناء مجموعة من الأشخاص الذين لم يملوا بعد من مهاتفتها، ورضوا بأنها لن تقدم على فعل المثل أبدًا.

حين ترمّلت أمي، اضطلعت من دون تردد بدور رجل البيت: تعلمت استعمال الحاصدة والمنشار الكهربائي وتنظيف المسبح، وسد جحور النمل قاطع الأوراق. ثمة فترات قادت فيها السيارة لأكثر من اثنتي عشرة ساعة ومعها خمسة أطفال، على طرق موبوءة بالمتمردين لكيلا تتركنا من دون عطلات.

على الرغم من أن تربية أمي لخمسة أبناء بمفردها ألقى فوق كاهلها بكمية هائلة من الأشياء التي يجب عليها فعلها، لطالما وجدت وقتًا كافيًا لنباتاتها. لقد زرعت وروت وسمَّدت. كان هذا الأمر أفضل علاجاتها. ليس غريبًا أن تتحدث عن زهور الأوركيد. إنها نباتاتها المفضلة. على الرغم من مرور السنين، يبدو أن أمي لا تُنهَك أبدًا. نحن من يُصيبنا الإنهاك من رؤيتها وهي تحلّق هنا وهناك طوال اليوم.

قد تخرج بمفردها في منتصف الليل ومعها ساطور بين يديها كي تكتشف لماذا تنبح الكلاب. قد تنهض لإبعاد الثعالب البرية التي تترصد حظيرة الدجاج. لا تُظهر فزعها من أي شيء أبدًا، حتى وإن ارتعشت من الداخل. لا ينكسر صوتها أبدًا، ولا حتى في تلك المرات التي توشك فيها على الانهيار؛ لأنها بالطبع، قد انهارت في مرّات كثيرة، وانكسرت في مرَّات أخرى، كالطيور المحاكية وهي تصطدم بالزجاج. لكنها لم تنكسر إلّا وهي محبوسة في غرفتها لكيلا ندرك أن الشيء الوحيد الراسخ في حياتنا قد يضعف ذات مرَّة هو الآخر ويسقط على الأرض.

توقفت عن إرضاء الآخرين، وتعلمت أن تقول "لا" حتى لو انتظر الآخرون جوابًا معاكسًا. يبدو مستحيلًا أن يتحلى مثل هذا الجسد الصغير بهذا القدر من القوة. أمي ليس ما تبدو عليه. إن وجودها متناقض كأمطار الأحراش التي تُعطي انطباعًا بأنها تسقط من أسفل إلى أعلى، وتخلق بِركًا يتلاصق فيها الماء كي

تتمكن الغيوم من رؤية انعكاسها فيها.

يُمكنها أن تجمع بين انتعال حذاء رياضي من ذلك النوع المخصص للتعامل مع الشؤون التقليدية لأي مزرعة وارتداء نظارة من علامة تجارية معروفة، والحفاظ في نفس الوقت على لمعان شعرها الذي لم يتجرأ الشيب على تحديه ويشبه عباءة من الحرير الأسود. لديها خبرة في المصنوعات الرصاصية والمضخات التي تعمل بمحرك، بقدر خبرتها في المطبخ. كعكاتها ذائعة الصيت، وأي شخص قد يضحي بحياته ليتذوق فطائرها المحشوة بالدجاج. تعرف كيفية إعداد الخبز والزبدة. تعرف كيف تضرب حلوى الـ"أريكيبي" و"إل مانخار بلانكو" والـ"بوكاديو". تعرف كيفية إعداد المربى ورقائق الـ"أوخويلا" ومقرمشات لحم الخنزير. تعرف كل شيء. "لست محقة بصورة دائمة، وإنما شبه دائمة". إنها عبارة تقولها يوميًّا وأثبتت لنا السنوات أنه من الأفضل ألّا نكذبها.

لا تزال تظن نفسها في قوة خشب الماهوجني، على الرغم من أن عمرها يقارب السبعين عامًا، ولهذا تجاهلتْ كل الأسباب التي ظننّا أنها بسببها لا يجب أن تمضي قدمًا في مشروع العيش مجدَّدًا في الريف. هكذا هو الماهوجني: يظن نفسه قادرًا على مقاومة كل شيء. ماما أيضًا من طينة الأشخاص الذين لا يُمكن إخراج أي فكرة من رؤوسهم إلّا باستئصالها. بوجه عام، حين تقول إنها تودُّ أن تفعل شيئًا ما، فهذا لأنها قد فعلت نصفه أصلًا. هكذا، حين اتصلت بها في إحدى عطلات

الأسبوع لدعوتها إلى الغداء، قالت إنها تتجول في الجبل بحثًا عن مكان لتعيش فيه.

صعدتُ في يوم سبت لرؤية الأرض التي اشترتْها، وأتذكر أنها بدت لي أتفه أرض في العالم. لم أفهم ما فكرت فيه أمي حين اشترتها. كانت أرضًا مقفرة طيلة سنوات. لم تنبت فيها ولا شجرة واحدة. ولا واحدة فعلًا. لم يكن النجيل نجيلًا أصلًا، وإنما مجرد حشائش ضارة، ولم تكن أرضًا خصبة. تقع فوق قمة جبل. وفَّر لها هذا الأمر على الأقل إطلالة جيدة، لكن لم أجد نقطة مستوية لإنشاء بيت. ظهر إلى جوارها منطقة رطبة متعفنة مليئة بالحشرات والأجمات. لم يكن السير هناك ممكنًا من دون أن يلتهم المرء البعوض أو أن تعلق قدمه في الوحل، في حين بدت النباتات عدائية وقاسية. كلها جرحت المرء وجعلت جلده مليئًا بالخدوش والأشواك. لم أر سوى حماس ساذج حيث رأت هي كمية كبيرة من الأشياء الجميلة، لكنني لم أقل شيئًا.

تقدم البناء بخطوات عملاقة، لأنها تعجلت العمال وأغرقتهم بالمهام لكيلا تسمح لهم بالالتهاء بتدخين الحشيشة ولو لثانية واحدة. لطالما أزعجتها رائحتها المجردة لأنها تذكرها ببابلو. أدرك العمال سريعًا أنهم لن يجدوا بدًّا من تنفيذ أوامر ماما ما دامت تترأسهم، فانصاعوا إليها. بُني البيت في وقت قياسي. انفجرتُ في البكاء من فرط جماله حين صعدت لأراه، فنوافذه أكثر من جدرانه وينتشر الضوء بخيلاء في كل

أنحائه ويشتعل كبؤرة من النيران عند نوافذه الكبيرة. من غير الممكن أن يستقر بصر المرء في أي مكان من دون أن يرى الجبال الخضراء التي تحوطه.

تخلصتْ بيديها من الحشائش الضارة ومدت المرج الأخضر كأنها تمد سجادة. بدت وكأنها تخلق العالم. بعدئذٍ، بدأت الحفر وزراعة الأشجار. انبثقت الدماء من ثآليل راحتَي يديها، لكنها لم تتوقف. لطالما خرجت بشاحنتها لجمع كل ما تراه على جانب الطريق. استفادت من أي شيء يُمكن زراعته. حتى الأحجار نفسها أخذتها كي تضعها في الأرض الرطبة. نظر إليها الفلاحون بفزع كلَّما مرت مرَّة تلو الأخرى وشاحنتها ممتلئة بها.

كلما زارها أحد وسألها ما الهدية التي تنقص المزرعة، أجابت بنفس الكلمة: "الأشجار"، وهذا على الرغم من أنها نقصتها أشياء أخرى كثيرة. نقصها كل شيء في الواقع، لكنها كانت مهووسة بزراعة الكثير منها، إلى درجة بات مستحيلًا معها أن يسير المرء من دون أن يصطدم بواحدة منها.

بدأ اللون الأخضر يكسو الأرض بفضل يدها الماهرة وأطنان من السماد. باتت الأغصان تنمو في يوم واحد فقط ما قد يستغرقه غيرها شهورًا. لو جلس المرء لإمعان النظر فيها، لرأى أنها تتمدد بشراهة. لا أعرف هل تبدو نباتاتها مثلها أم أنها تبدو مثل نباتاتها. تحسب أمي أنها تزرع غابة، لكن الغابة هي التي تزرعها. إنها الآن لا تتوقف عن الازدهار.

صارت تتحدث أقل مع مرور الوقت، لكن بات حضورها يتسع للمزيد، كتلك الأشجار العملاقة التي تولِّد الاحترام بمجرد رؤيتها. هذه الأشجار هي الحرس الصامت للغابة ومُوردو ظلالها. تُقدم أغصانها المأوى لكل من يودُّ أن يستقر فوقها وتجعلنا عظَمتها نشعر أن الحياة تستحق العناء، فقط إن عثرنا على مسوِّغ منحِها لنا. أظن أن أمي تعرف أسبابها تمام الوضوح.

إن السير عبر أراضيها هو أقرب شيء للتصالح مع الوجود، إذ تفوح منها رائحة لا بد أنها تُشبه رائحة العالم حين خُلق للتو. كل شيء نظيف ومضيء ويجعل المرء يخجل من أنه مجرد إنسان، فيرغب في أن يصبح شجرة وأن يظل صامتًا بلا حراك تحت عنايتها، من دون أي طموح سوى رؤية الزمن وهو يمر، حتى من دون وجود مفهوم دقيق لماهية الزمن نفسه. نعتاد أن نقضي ساعات ونحن جالستان فوق الحجارة فنتأمل المشهد الطبيعي ونتحدث عن كل شيء من دون أن نقول شيئًا، كأننا شجرتان من نفس الغابة.

سريعًا بدأت عصافير المطموط المتوج الزرقاء تسكن الأجراف، وأعلنت طيور الشاشالاكا من دون انقطاع عن الأمطار. تتدلى الآن من الأشجار آنية ملآنة بالماء المحلى بالسكر، وتصل طيور الطنان إليها كأسراب نحل وتصطف وهي معلقة في الهواء لتشرب منها. لا يعرف المرء في الليالي المظلمة الصافية أين تنتهي النجوم وأين تبدأ اليراعات، فيضطر

إلى فرك عينيه للتحقق من الأمر وللتأكد من أنه لا يهلوس. إنه أمر جميل جدًّا إلى درجة تُشكك المرء في وجوده، ومع ذلك، فهو موجود، لأن أمي خلقته، ولأن ثمة مكانًا في هذا العالم أيضًا للأشياء الجميلة، وبالمثل لأشخاص مثل أمي: يقدرون على خلق غابات، رغم أنهم يعلمون أن حياتهم لن تسعفهم ليستمتعوا بها.

لا أعرف ما إذا كانت أمي ستتحول إلى شجرة كي تغرس نفسها في غابتها. ربَّما قد صارت هكذا أصلًا. ربَّما كانت هكذا على الدوام، من دون أن ندرك. سيكون تمثيلًا لائقًا جدًّا بشخص مثلها. لو أنها لم تَصر شجرة بعد، فستأتي اللحظة التي تتحول فيها إليها، حينما تغدو رمادًا ننثره حفنة تلو الأخرى فوق الأرض الخصبة.

أو ربَّما قبل ذلك. إن استمرت ذراعاها في التمدد كما الأغصان وإن استمر النمش يفترشهما كما تفترش عروق الخشب سطحه. ربَّما ستواصل عروقها إصرارها على الظهور وسيكتسب جلدها ملمس بتلات الزهور. يقولون إنه يجب على المرء معرفة ما الذي يودُّ أن يصيره في هذه الحياة. بالنسبة إليها، الأمر واضح، ولهذا تستعد للمسألة وهي في غابتها الشخصية، التي ستنغرس في أرضها يومًا ما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ذهبت إلى لندن هربًا من شياطيني، كأنها ليست موجودة داخلي. هربت من ذكرى أخي ومن عجزي عن تفهمه. هربت لأنني لم أتمكن من نطق اسمه. هربت من آلام ظهري ومن الوظيفة التي كرهتها ومن الرفيق العاطفي الذي لم يعرف كيف يحبني. قضيت شتاء أبرد من كل فصول الشتاء التي قضيتها معًا. سرت بمفردي عند حافة البرك المتجمدة وأنا أحاول ألّا أنزلق. تهت بين أزقة رطبة انعكستْ فوق أرضيتها أضواء أعمدة الإنارة الصفراء، وأنا أسمع أنين سرينة السفن الذي لا يتوقف وأتساءل لماذا شيء صاخب مثل السرينة يشبه منطوق كلمة رقيقة مثل "سريرة"*.

قاومت الهمّ في مدينة مهمومة. قضيت الوقت بمفردي، وأنا وحدي دائمًا. افتقدت ألوان وضوضاء الجانب الآخر من العالم. لم يبتسم أي غريب لي، حتى إن جلسنا على نفس أريكة الحديقة. جلست عليها طيلة ساعات إلى أن اشتد البرد

* الكلمة التي وردت في النص الأصلي هي "sirena" والتي تعني "سرينة" و"عروس البحر" أيضًا. بالنسبة إلى الترجمة الحرفية للجملة التي وردت في النص الإسباني فهي "لا أعرف لماذا تستخدم كلمة sirena لتعني سرينة ولتسمية نساء صامتات يعشن في البحر" والتي إن تُرجمت هكذا لم يكن المعنى ليستقيم في الجملة العربية، لهذا لجأت إلى التصرف الوارد في الترجمة باستخدام كلمة "سريرة" ومسألة المنطوق. (المترجم)

واضطررت إلى دخول أي متجر أو محطة مترو لأحظى فقط ببعض الدفء. قضيت أيامًا كاملة من دون أن أنطق كلمة واحدة وأنا أشعر بكوني شفافة. لم ينظر إليَّ أحد هناك، واضطررت إلى البحث عن انعكاسي الشخصي في واجهات المتاجر الزجاجية أو في أسطح برك الماء المتجمد لأتأكد من أنني ما زلت موجودة. بقيت هناك وازددت شحوبًا وبياضًا وحزنًا؛ وأنا مختبئة أسفل ألف قطعة ملابس لم تكف قطُّ لتخفيف شعوري بالبرد. استغرقت وقتًا في تفهم أن الإنجليز يعيشون منشغلين بالتمشي مع همومهم عبر تلك الشوارع التي تقطر الكآبة منها بكل الدرجات الرمادية، وبالمثل لإدراك أنهم يعتبرون إمعان النظر في أحد من سمات سوء التربية.

يتذكر أغلب الناس لندن بأسماء شوارعها والحانات المليئة بالرجال الذين لديهم فائض من الشرب ونقص في الحياة، وبالمتاحف وبالكاتدرائيات وبالتماثيل، أما أنا فأشد ما أتذكره من لندن هي أسرَّة الفنادق التي من فرط بياضها ونعومتها تجعل المرء يرغب في الرقود فوقها والبقاء هناك إلى الأبد. يتذكر الناس "أوكسفورد" و"بيكاديللي"، أما ما أتذكره أنا فهي ملاءات "فاندربيلت" المكونة من ألف خيط، وجبال الوسائد في هذا الفندق الواقع في كينغستون، الذي نسيت اسمه. ربَّما نسيته لأن ما شغلني آنذاك هو أن أتركه يؤنس وحدتي، وأنا راضية بأن يشربني بلسانه كاملة مكتملة، وبأن يعيد ابتكار جسدي بملمس أصابعه، وبأن يُحصي بقع نمشي واحدة تلو

الأخرى ليحسب مقدار الشموس التي تراكمت في كل واحدة منها.

تبادلنا الحبّ من دون هموم؛ من كامدين إلى تشيلسي، ومن لامبيث إلى وايتشابل. قضينا عطلات أسبوعية كاملة وكلٌّ منا يروي ظمأه من عُري الآخر. لم يُدثرنا شيء سوى العرق والمني واللعاب. كنّا الأمواج التي اهتززنا وسطها باستمرار: أحيانًا بهياج عواصف أعالي البحار، وفي مرّات أخرى بالهدوء الغاضب للأصباح عديمة الرياح. كنّا البحر بحذافيره، وأبحرنا كأنه لا وجود لأي ضفاف، وكأننا قد قُدر لنا ألّا نصل إلى أي مكان.

قضينا الشتاء ونحن نُدفئ بعضنا بعضًا أسفل الملاءات التي كان لونها في أغلب الأحوال كرمال الصحراء. قضيت وقت فراغي نائمة كحيوان في بيات شتوي. عشت منهكة وناعسة. عملت بكدٍّ في وظائف زهيدة الأجر لم أكن مؤهلة لها. اعتنيت بأطفال وغسلت أطباقًا وصنعت شطائر، وجهزت طاولات طعام. قدمت الطعام إلى عجوز لديه خوف مرضي هائل من الموت. جعلني أتصل كثيرًا برقم الطوارئ، ليتأكد فقط من أنني قادرة على التواصل، وتحسّبًا لمجيء اللحظة التي قد يحدث له فيها شيء حقًّا.

راقبني في الفنادق، من دون أن يرمش، كأنه طائر ليلي، وأنا نائمة من الإنهاك اللا نهائي الذي أصابتني به هذه الأعمال

زهيدة الأجر التي لا يقبلها إلّا المهاجرون. لطالما قال إن كل ثانية يرمش فيها ثانية ضائعة لأنه لا يراني فيها. كلَّما استيقظتُ، قرب نهاية الصباح، وجدته يستند إلى ظهر الفراش وهو يراقبني، بنفس الحدة التي يلجأ إليها العشاق الذين يرفضون تسمية علاقتهم لأنهم يعرفون أن أي مَّرة قد تكون المرَّة الأخيرة.

لا أعرف هل أحببته، أم أنني وددت فقط أن أشعر بالأمان الذي منحتْه إليَّ تقاسيم وجهه التي استقرت بعد مرور السنين. لا أعرف هل أحببته، أم أن ما سعيت إليه هو الشعور بالحماية داخل هذه المدينة المليئة بالمعاطف السوداء والخطوات الحثيثة. على الأرجح شعرت بالملل من التحدث مع نفسي في المرآة وشرب وجهي الموجود فوق سطح القهوة. ربَّما تعبت من افتقاد دفء الضفاف البعيدة، ومن التفكير في أنني إن مت وقد تمر أسابيع من دون أن يدرك أحد.

كان هذا الرجل ليصبح أبي، لأنه لطالما أمسك جذعي بين يديه وجعلني أشعر بأنني صغيرة. هاتان اليدان الصبورتان اللتان عرفتا كيف تمدان جسدي في تقوسات مستحيلة. هاتان اليدان الضخمتان اللتان جعلتاني أصرخ وأتنقل من فراش إلى فراش ومن فندق إلى فندق، بحثًا في مداعباته عن صبر لم أعهده. كان ليصبح أبي، لأنني حين عرفته كان في مثل عمره حين مات وتركني في تلك السن التي تعتقد فيها البنات أنهن مغرمات بآبائهن. كان عيد ميلاد كليهما في الثاني من مايو.

لما عرفته، بدا الأمر كأنه الرجل الوحيد الذي لا يسير مُسرعًا في إنجلترا كلها. دخل المتحف البريطاني لأنه لم يجد شيئًا أفضل ليفعله: ألغوا اجتماعًا مهمًّا سيحضره وكان قطاره نحو باث آخر القطارات التي ستنطلق ليلًا. من ناحيتي، كنت المرأة الوحيدة التي لديها وقت لتضيعه فوق أرائك الحديقة الخشبية، وأنا أتأمل حركة المعاطف القاتمة والضباب العالق بثبات في الأزقة الضيقة.

لا أعرف هل شعرت بحنين إلى الماضي أم إنهاك من الحاضر. ربَّما كل ما حدث أنني تغيبت عن فصول الإنجليزية وجلست بمفردي، وأنا أشعر بالإرهاق والملل. لو أن ثمة سببًا لدخولي هذا المتحف في تلك الساعة، فهو أنه كان مجانيًّا وأنني شعرت بالبرد ولم يُشعرني معطف واحد بالدفء الواجب. امتلأت الغيوم في السماء بالماء الذي سيفيض في الشوارع بعدئذٍ ولم أكن قد اشتريت مظلة بعد.

اقتحمت عيناه الزرقاوان عينيَّ ونحن في تلك الممرات العامرة بالفن. لاحقني بحذر لأن النساء الشابات يفزعن حين يدنو منهن رجل يستخدم قبعة ذات رأس مرتفع ويكبرهن بمقدار الضعف. بدا لي كبيرًا جدًّا، وشق عليَّ تفهم لكنته إلى درجة أنه لم يخطر على بالي قطُّ أنه يُغازلني. فجأة بات مضطرًا إلى الذهاب إلى لندن باستمرار، ولسبب ما، لم يلحق دائمًا بقطار العودة إلى باث.

قضينا ساعات ونحن نتحدث من دون أن يفهم بعضنا بعضًا بالكامل. ثمة مرّات نظر فيها كل منا إلى الآخر من دون أن نقول شيئًا. تبادلنا النظرات بثبات لأننا علمنا أن العام يمر سريعًا، وأنه لا بد لهذه النظرات أن تصل إلى شيء يُذكِّربعضنا ببعض بقية حياتنا. قرأنا في مرّات أخرى بصوت مرتفع، للاستمتاع فقط بسماع صوتينا. كان أستاذًا للأدب الإنجليزي وأنا مجرد مبتدئة في عالم الكتابة لديها أفكار عدة روايات في عقلها، ولا واحدة منها فوق الورق.

ذات مرَّة، قبلني من دون أن يمنحني فرصة للتفكير فيما إذا كان عليَّ رفضه أم لا. لما استعدت إدراكي، كان جسده قد اجتاز الحدود الخيالية التي تفصله عن جسدي، فأدخل وأخرج لسانه إلى ومن فمي وجاب عنقي وهمس في أذني بأشياء شق عليَّ تفهمها، ومع ذلك اقشعر معها جلدي وتصلّب بسببها صدري. فقدتُ إدراكي مجدَّدًا وأنا أستنشق الهواء وأحاول التحكم في رعشة ساقيّ، لكن هذه اللحظة كفت كي يتيه رأسي في ذلك المكان الغائم والملتبس الذي يبتلع كل الأفكار الواضحة.

في تلك الأثناء، تسللت يده داخل قميصي، داخلي أنا. تركتها هناك. ربَّما لأنني كنت بعيدة عن بيتي ولأن أبي مات منذ سنوات، لم أعد أتذكر ما الذي يعنيه شعور أن يحميني رجل. لقد أعاد إليَّ شيئًا دُفن مع جسد أبي: شعرت إلى جواره بالأمان، بأنني في مأمن، بأنه ما من شيء قد يحدث لي. تمكنت بسببه من تسمية إحساس ظل معي منذ عمر الحادية عشرة. اسم

هذا الإحساس هو "الهجران". يحدث بسبب الغياب المأساوي للآباء، وكنتيجة له يبحث المرء عن أخلّاء أكبر منه بكثير، من دون أن يدرك. لم يعد ظهري يؤلمني مجدَّدًا. استمررت في النوم من دون انقطاع في كل الليالي وبدأت الكوابيس تتلاشى.

تبادلنا العشق فوق أسرَّة الفنادق طيلة عام كامل. إنه ذلك العشق الذي لا يعرف ضفافًا، ومع ذلك انتهى حين وطأتُ الضفّة التي أعادتني إلى بيتي، البعيد جدًّا، في قارة أخرى مليئة بألوان وبحار أدفأ. حاول الوصول إلى هذه الضفة أكثر من مرَّة، لكنني كنت قد تشبثت بالفعل بيدين أخريين تسبقانني أيضًا بسنوات كثيرة. كانتا كيديه، لكنهما ليستا يديه. لم أره بعدئذٍ قط.

ذهبت إلى خُلوة للـ"فيباسانا"* بحثًا عن شيء لم يضع مني. حدث هذا ذات صيف في سانتا ماريا دي بالاوتورديرا**. في تلك الأيام، ضربت موجة حر كل أنحاء إسبانيا. لم أشعر في حياتي قطُّ بمثل هذا الحر. ذهبت إلى هناك وأنا مطلعة على بعض المعلومات، لكن ليس بصورة كبيرة. علمت مسألة نذر الصمت، والوجبتين النباتيتين اليوميتين، والغرف المشتركة. لم يقلقني كلُّ هذا. لديَّ خبرة في التأمل. أنا ماهرة في الصمت. لا آكل اللحوم. أتأقلم بسهولة. يروقني أن أكون رفقة نفسي. فكرت في كل هذا قبل ثلاثة شهور من الأمر حين سجلت اسمي في قائمة انتظار لا نهاية لها لأحجز مكانًا.

تردد صدى الـ"غونغ"*** في اليوم الأول. كدت ألاّ أنهض. السبب الرئيسي الذي قررت بسببه أن أمتلك شركتي الشخصية هو ألا أضطر إلى النهوض مبكرًا. جاءت وذهبت ثلاثون واحدة غيري في الحمام المشترك. لم تُسمع سوى أصوات ضوضائنا: ماء الدش وهو يسقط على الأرض، فرش الأسنان

* أحد أقدم تقنيات العالم في التأمل. (المترجم)
** إحدى بلديات مقاطعة برشلونة. (المترجم)
*** حلقة دائرية مغلقة يُقرع عليها بعصا وهي منتشرة في الثقافات الآسيوية. (المترجم)

وهي تؤدي وظيفتها، المراحيض وهي تُفرَّغ مرَّة تلو الأخرى، الخطوات التي تحاول أن تغدو صامتة، الأنوف وهي تتمخط، والأظافر وهي تحك الجلود.

اليوم الأول

نحو الرابعة والنصف، جلسنا جميعًا في قاعة التأمل. الرجال في جانب والنساء في الجانب الآخر. بينما أجلس، فكرت في صعوبة الاستيقاظ مبكرًا. أدركت بعد ساعتين من الجلوس هناك أن الاستيقاظ مبكرًا هو الجزء الأسهل، فالأصعب هو التأمل، وعليَّ أن أمارسه لعشرة أيام متتالية.

لا أعرف ما الذي آلمني أكثر. أظن أنه ظهري. لا. أفضَل الظن أنها رقبتي. لما تيبست ساقاي فكرت في أن هذا أصعب شيء، لكن بعدئذٍ طالبني مشطا قدميَّ بالراحة، ثم استقر الألم لاحقًا في كتفيّ. بعد انتهاء هاتين الساعتين، آلمتني أشياء لم تؤلمني قط. إنهما أطول ساعتين في العالم. تفهمت مدى نسبية الزمن. إنها السادسة والنصف من اليوم الأول فحسب، لكن ها هما ساعتان بمقدار أعوام. صاحت الديكة من بعيد لأنها صحت للتو. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد وشعرت بأنني منهكة.

تردد صوت الـ"غونغ". لإعلان الإفطار. واصلنا التأمل حتى الحادية عشرة. تردد صوت الـ"غونغ" من أجل الغداء وظللنا نتأمل بقية اليوم. يا لسهولة كتابة "نتأمل بقية اليوم"

ويا لصعوبة القيام به! "بقية اليوم" لوقت طويل. في النهاية، آلمني رأسي وآلمتني معدتي. دق الـ"غونغ" مجدَّدًا في التاسعة والنصف لإبلاغنا بأن ساعة النوم قد حانت.

ساد الصمت المكان إلى درجة سماع صوت فتح أي واحدة منا لحقيبتها، أو تناولها لرشفة من المياه أو إخراجها لقرص دواء. صارت أصوات معدة كل منا مسموعة، لأنه لا يوجد عشاء ليلًا. لا يتعلق الأمر بالشعور بالجوع، وإنما أن المعدة لها صوتها الدائم. على الأرجح، تُصدر أصواتها دائمًا ولا يسمعها المرء، لكن حين يسود الصمت فترة طويلة من الزمن، نبدأ في سماع أشياء لم نسمعها قط. يغدو القلب مسموعًا ويشعر المرء بأعضائه ويلاحظ أنفاسه وهي تلامس أنفه والدماء وهي تسري عبر عروقه.

شعرت بالغضب من نفسي. فكرت في أنه عليَّ أن أكون في أحد الشواطئ، لا هناك. فكرت في زجاجة "كوكا كولا" وفي قطعة من الشوكولاتة. فكرت في قائمة الكتب التي تنتظر القراءة. فكرت في أن ما عليَّ فعله هو أن أكتب. فكرت في الأيام التي تتبقى على رحيلي، حتى جاءت لحظة لم أعرف فيها في أي يوم أنا أصلًا. تأملت كثيرًا لمعرفة هل هو الأربعاء أم السبت. لم أعرف الأمر قط.

امتلأ فراشي بالنمل. لم أنم جيدًا لأنه قرصني طوال الليل. تذكرت أنني كلّما تضايقت من إخوتي وأنا طفلة، فركت قطعة

من الخبز المحمص فوق أسرَّتهم كي يملأها النمل. "أهلًا بالعاقبة! كيف أحوالك؟". فكرت وفكرت من دون توقف، بهذا العقل الذي لا يروَّض وتدرب على مَنطَقة كل ما يحدث، لكنه في تلك اللحظة عجز -لسبب ما- عن تفهم ما يجري حقًّا.

## الأيام الأخرى

تشابه اليوم الثاني مع الذي سبقه. والثالث والرابع. شق عليَّ التعامل مع كل هذا الصمت لأنني نشطة جدًّا. حزمَتْ فتاتان أمتعتهما وغادرتا. لا أتذكر وجهيهما. ذهبت لأتمشى في أوقات الفراغ في المنطقة المخصصة لذلك. نظرت إلى الأرانب البرية. وددت أن أتحول إلى أرنب وأهرب. نظرت إلى طيور اللقلق وهي تبحث عن أعمدة الإنارة لتنام. وددت أن أصبح لقلقًا وأن أنطلق لأحلق. كتبت بذهني وأنا أتمشى. كتبت رواية كاملة. عددتُ. عددتُ أحيانًا لمجرد العد، وعددتُ في مرّات أخرى الساعات التي تتبقى على رحيلي، وفي مرّات أخرى عددت خطواتي نفسها. يبلغ طول المسافة المخصصة للتمشّي ثلاثمئة خطوة. عددتها مرّات كثيرة. لو احتُسب عدد المرات التي اجتزتها فيها، فربما سأُرسي رقمًا قياسيًّا.

سرت بسرعة وتقدمت بغضب. لربما تمكنت، مع بعض الحماس، من العودة إلى مدريد، وأنا أهرول. وددت أن أركض سريعًا قدر استطاعتي؛ أن أركض وأكتب؛ وأن أكتب وأركض.

هذا هو ما وددته. إنه هوس الرغبة في الحصول على ما ليس موجودًا لدى المرء. ليكن معلومًا أنني لطالما ظننت وأنا أهرول أن ما أريده هو الجلوس والتأمل، لكنني لما تمكنت من تكريس نفسي بالكامل للتأمل، لم أفكر إلّا في الركض. يبدو أنني جيدة جدًّا في مسألة الفرار. أقول دائمًا إن الناس لا يعرفون أبدًا ما يريدونه. هكذا هي حالي أيضًا.

ثمة ملاحظة، وهي أن الآخرين بدؤوا يعتادون الأمر من اليوم الرابع، أما أنا فلا. استمر صراعي مع عقلي حتى اليوم السادس، إلى درجة أنني رفضت الاستيقاظ في الرابعة صباحًا. لم أفعلها في ذلك اليوم. لفتوا انتباهي. لم أشغل بالي. السبب الوحيد الذي لم يجعلني أغادر المكان هو أنني سمعت صوت أمي يقول لي: "فات الكثير ويبقى القليل". وتردد صدى كلماتها داخل رأسي كجرس. "فات الكثير ويبقى القليل". "فات الكثير ويبقى القليل".

اليوم السابع

لم أستيقظ مبكرًا في اليوم السابع أيضًا. نهضت مباشرة في السادسة والنصف مع موعد الإفطار. وصلت إلى أقصى حدودي. لم أقدر على المقاومة لحظة أخرى. ولا واحدة فعلًا. فجأة، وأنا في وسط الإفطار، بينما أقلب الشوفان بغضب، بدأت أفكر في أنني لست أحدًا وأنا هنا. بدأتْ الشمس تشرق. مرت سبعة أيام من دون أسمع اسمي أو صوتي. أعمتني أشعتها. لا

يعرف أحد ما الذي فعلته، أو ما هي ممتلكاتي المادية، أو ما هي الإنجازات التي أفتخر بها. بدأتْ اللقالق تحليقها. أدركت أن أحدًا لا ينظر إليّ، وأنني لست موجودة، لأن أناي التي تتغذى على ما يفكر بها الآخرون مرت عليها سبعة أيام من دون أن يُغذّيها أحد. قرضتْ الأرانب التفاح الساقط على الأرض. من أنا إذن؟ هز كل هذا أسس كياني. بدأ الصباح بوداعة في الخارج، أما الإعصار فكان داخلي.

ما أغضبني هو إدراكي أنني لست أنا، وإنما ما يظنه الآخرون عني. لم أكن إلّا مجرد حمقاء لا تعرف من هي؛ حمقاء عاجزة عن الجلوس مع نفسها لتتأمل لأنها تفكر أنه من الأفضل لها أن تكون على الشاطئ، لا هنا. من الأفضل لها أن تقرأ وتكتب، لا أن تبقى هنا. من الأفضل لها أن تهرول، لا أن تبقى هنا. من الأفضل لها أن تشرب زجاجة "كوكا كولا"، لا أن تبقى هنا. من الأفضل لها أن تشتري أغراضًا لا تحتاجها، لا أن تبقى هنا. أدركتُ أن حلزون الرغبات هذا الذي يجعلنا بشرًا هو سبب تعاستنا الشديدة. نحن لا نستمتع بالحاضر لأننا نظن أن الأفضل دائمًا موجود في مكان آخر. لا مع المرء، وإنما في مكان آخر دائمًا.

حينئذٍ، فكرت في بابلو.

كان قد مر عامان على وفاته عقب حادث الدراجة النارية. ظللنا نتشاجر على مدار السنوات السبع الأخيرة في حياته بسبب إدمانه للمخدرات. لما مات، أدركت أنني ما زلت

غاضبة منه، وأنه سينبغي عليَّ التعايش مع هذا الشعور للأبد. كرهت هذا الشعور، لكنني عجزت عن فعل أي شيء لتغييره. لا يمضي المرء في حياته وهو يقول لقلبه: "أحِبب هذا الشخص"، و"تخلَّ عن حبك لهذا الشخص الآخر"، و"اغفر لهذا"، و"انس هذا". ليت الأمر بمثل هذه السهولة. ليته هكذا فعلًا.

حين اختبرت بشحمي ولحمي مدى تعاسة المرء حينما يعجز عن إرضاء رغبته، وقع شيء غير منتظر. بدا كومضة عبقرية، كأن غمامة أزيلت من فوق عينيّ، كأنني سمعت همسة في أذنيّ. لقد فهمتُ أخي، وحين حدث هذا، شعرت برعشة تمضي في ظهري من أعلى إلى أسفل.

كان بابلو ممن لا يرتضون بأي شيء. كلَّما تلقّى شيئًا أو حقّق إنجازًا ما، استخفّ به وفكر في أنه يستحق شيئًا أفضل. لطالما أراد المزيد. القليل منه دائمًا. كان شرهًا ومتطلبًا. لم يكفه شيء. لم يستمتع بما لديه لأنه اعتاد أن يفكر فيما ليس معه. قادته محاولاته لملء هذه الهوة التي لا قاع لها إلى المخدرات. اسم هذه الهوة التي نظر إليها دائمًا هو أبونا. تمكنتُ في تلك اللحظة من رؤية الأمر بوضوح، ومع ذلك استغرق مني إدراك اللحظة التي بدأ يسير فيها على حافة الهوة والنظر إلى أعماقها سنوات. تفهمت فجأة، وبوضوح هائل، مدى فظاعة صراعه لتحقيق مبتغاه، ومدى البؤس الذي لا بد أنه شعر به حينما فشل في الوصول إليه، محاولة تلو الأخرى، ويومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، إلى أن أصبح عمره ثلاثة وثلاثين عامًا.

دهمتني هذه الطريقة في رؤية الأمور كموجة كبيرة، فاجتاحتني وقلبت حالي رأسًا على عقب. بدأت أفكر فيه، بين هذه اللحظة وتلك الأخرى، بتعاطف، لا بكره. تألمت جدًّا من الحزن الذي لا بد أنه اكتنف حياته المثقلة بحنق بمثل هذه القوة لفترة طويلة. قضيت سبعة أيام بالكاد وأنا أتصارع مع رغباتي وشعرت بأنني تعيسة جدًّا جدًّا، بل وملآنة بالإحباط والغضب. غضبت من نفسي لأنني عجزت عن التعامل مع هذا الوضع شديد الصعوبة الذي أخضعتها له طواعية، لمجرد أسبوع واحد، أما هو، فلا بد أن مصارعة رغباته طيلة ثلاثة وثلاثين عامًا كانت أمرًا فظيعًا. إنه كابوس. لا يُمكن لأحد أن يعيش فترة طويلة وهو يختبر ما شعرتُ به. إنها مسألة تصيب بالجنون.

بكيت من أجله. بكيت طوال اليوم. بكيت في مسيراتي. بكيت في تأملاتي. بدأت في واحدة منها أشعر بأنني أدور وأدور. إنه أمر غريب، لأنني درت في كلا الجانبين في نفس الوقت. إنها مسألة يصعب شرحها. دُرت بسرعة جدًّا، لكنني لم أدخ، بل كان الأمر ممتعًا جدًّا، شعرت بأنني خفيفة جدًّا. لم أختبر هذا الشعور من قبل قطّ. ليلًا، وأنا أُبعد النمل، واصلت البكاء. استمر شعور الخفة معي، والنمل أيضًا.

تغيرتْ أيامي مع هذا الشعور. صارت محتملة بشكل أكبر، أما التأملات فأهدأ. لم يمض الزمن بطيئًا جدًّا. أتذكر كل الأمور بصورة ملتبسة، كأنني كنت نائمة أو أحلم. شعرت بسلام كبير داخلي. فهمت أمورًا لم أفهمها. تواصلت مع داخلي كما لم

أتواصل من قبل.

لا أعرف ما إذا كنت سأكرر تجربة الذهاب إلى خلوة للـ"فيباسانا"، لكن ما أعرفه فعلًا هو أنني ممتنة بعد أن منحت لنفسي فرصة اختبارها. إنها رحلة داخل النفس، وهذه هي الأصعب بين كل الرحلات. إنها الطريقة الوحيدة ليعرف المرء نفسه، وليتوقف عن قياس نفسه من منظور الغير. أن ينظر المرء داخل نفسه ليس سهلًا، ولهذا نمضي غالبًا بحثًا عن شيء يُلهينا. الآن حين أجد نفسي أبحث بيأس عن أشياء أفعلها، أمنح نفسي لحظة لأفكر في ما إذا كنت أهرب من شيء ما.

ذهبت إلى خلوة الـ"فيباسانا" بحثًا عن أشياء لم تضع مني، فوجدت أمورًا لم أبحث عنها. حين خرجت، كان أول ما فعلته هو شرب زجاجة "كوكا كولا"، مع الكثير من الثلج. إن السيطرة على الاندفاعات ليست أمرًا هينًا في نهاية المطاف.

تسألني دائمًا ما الذي سأفعله في المساء، فلا أعرف أبدًا بما قد أجيبك. التحديق إلى السقف ليست إجابة جيدة، على الرغم من أنني أفعل هذا الأمر غالبًا. أنا موهوبة في الملل. أظن أن الملل نشاط لا يأخذ حقه. يمنحني أعذارًا لأكتب، ويمنحك أعذارًا كي تفتش في أوراقي بحثًا عن نص حديث أرغب دائمًا في أن تقرأه ولا أتجرأ على تقديمه إليك بنفسي لسبب لا أعرفه. أتركه دائمًا في نفس المكان كي تعثر عليه، فتعثر عليه وتقرؤه وتطلق تعليقًا ماكرًا جدًّا إلى درجة أنني لا أدرك أننا تحدثنا عنه إلّا حين أجلس مجدَّدًا لأصحح النص، وإذا بتعليقاتك غير المترابطة التي أفلتَّها وأنت تغسل الأطباق تكتسب معناها. من الواضح أن سرَّنا ليس أن أختبئ لأكتب وأن تختبئ أنت لتقرأ، وإنما أن نتصرف كأننا لا نعرف الأمر، على الرغم من أن كلينا يعرفه.

تسألني دائمًا ما الذي سأفعله في المساء. بوجه عام، لا تتبدل إجابتي حتى وإن لم تكن حقيقية. لن أعترف أبدًا بأن قدرتي على تحمل الناس تتراجع بمرور الوقت، وبأن هذه الشقة الصغيرة الباردة التي قررتُ الانعزال فيها لمدة عامين من

أجل الكتابة باتت تروقني بصورة أكبر. لن أعترف أبدًا بأنني أتحدث مع نفسي؛ وبأنني أنظر إلى المرآة حينما أود أن أنظر إلى وجه معروف؛ وبأن انعكاس وجهي يَدهمني فوق سطح القهوة السوداء المرَّة التي أشربها يوميًّا. تعرف أن أكثر ما راقني في مجيئي إلى مدريد هو أنني لا أعرف أحدًا هنا، وعدم اضطراري إلى ابتكار أعذار للبقاء في البيت.

بات لديَّ وقت الآن لكتابة هذا الكتاب عبر كل هذه الأشياء التي أقولها لنفسي يوميًّا، ومع ذلك، لم أقدر على أن أقولها لأحد. أنت تعرف بعضها. هذا صحيح. لكن ها أنا ذي أكشف لك أمورًا أخرى تشرح لك لِم أنا هكذا ولِم سأعجز عن الحياة مع أي شخص سواك. أنت الوحيد الذي يفهم صمتي ولا ينخدع بقهقهتي القوية. لم تهدني قطُّ باقة من الزهور، على الرغم من أنني لم أكشف لك قطُّ أسباب كرهي لها. لا بد أنك قرأت بالفعل هذا الفصل. لقد انبثق من فكرة سجلتُها ذات مرَّة في مفكرة تأكدتُ من أنك ستعثر عليها.

لطالما عرفتَ أنني سيئة في الكلام، وأنني أضحك في غير الأوان، وأنني أتحمل الألم، وأنني أتظاهر بالشجاعة، على الرغم من أنني أموت من الخوف. لطالما عرفتَ أن الطريقة الوحيدة لامتلاكي هي تركي حرة، وأننا سنتمكن بالطبع -أي نعم بالطبع- من البقاء معًا حتى وإن فصل بيننا محيط، على الرغم من أن الكل قد ظنوا العكس. لطالما عرفتَ، أكثر مني أصلًا، أن كل هذا سيستحق العناء، وأن هذا الكتاب، يومًا ما،

لن يصبح موجودًا في رأسي فقط وأنه سيشغل في النهاية مكانًا ماديًّا وسط هذا العالم.

أحيانًا لا أجد بُدًّا من الخروج من البيت من أجل الذهاب إلى فصول الكتابة أو للتسوق أو لإلقاء فتات الخبز لطيور الحديقة أو للتقدم من دون وجهة فوق دراجتي الهوائية، حتى أغدو عاجزة عن العودة إلى البيت بطُرقي الشخصية. ما زلت لا أميز الشرق من الغرب أو الشمال من الجنوب. أعيش وأنا حائرة، لكن أجمل شيء هو أنني أكتشف بقوة التيه اليومية أماكن جديدة أعجز مع ذلك عن العودة إليها في اليوم التالي. ما زلت أمارس الرياضة: يشق عليَّ البقاء بلا حراك، لكنني الآن أختار النشاطات المنفردة. أخرج للهرولة والسير والسباحة. أمارس التأمل يوميًّا لأنني ليس لديَّ تلفاز وأكتب حتى حينما لا أكتب. هل ستصدقني إن قلت لك إنه لا يمكنني التوقف عن التحرير داخل رأسي حتى وأنا أسير، أو وأنا نائمة، أو وأنا أقود دراجتي، أو كلَّما بدأتُ نشاطًا متكررًا لا يتطلب تركيزًا كبيرًا. أعترف لك بأنني سجلت نفسي في فريق للسوفتبول في ذلك اليوم. فرحت بممارستي مجدَّدًا لشيء أسعدني جدًّا في أيام المدرسة. مع ذلك، تركت الأمر بعد شهرين. أظن أنني لا أتوافق مع الرياضات الجماعية.مكتبة .. سُر مَن قرأ

أرى زملائي في الفصل في كثير من الأحيان. في البداية، لم يكن لديَّ أي خيار. لا وجود لماجيستير يقبل طالبًا واحدًا. أستمتع الآن بالأمر. يروقونني لأن لكل منهم صفاته الغريبة.

أعتقد أن الكتابة ليست للأشخاص العاديين. لا أزال أمارس اليوغا. صرت قادرة على الوقوف فوق يديّ.

اسألني اليوم ما الذي أفعله في المساء، قبل أن تستقل رحلتك الجوية كي تأتي لمقابلتي. اسألني قبل أن تنام أو أن تضع أنفك في ذلك الكتاب الذي سنتحدث عنه بالتأكيد؛ ذلك الذي لن أتذكر اسمه لأنني "لا أرعيك سمعي حينما تتحدث". اسألني قبل أن تُغير القارة، وقبل أن تقدِّم عقارب ساعتك، وقبل أن تجري حساباتك حول الأيام التي ستستغرقها لتخطي اضطراب الرحلات الجوية الطويلة.

اسألني لأنني صار لديَّ اليوم ردٌّ على طرف لساني؛ لأنني لديَّ خطة مبنية جيدًا، لأنني لأول مرَّة تركت عفويتي. ها هو ذا تصريف فعل يخطط: أنا أخطط، أنت تخطط، هو يخطط، نحن نخطط.

اليوم، سأعد الساعات الباقية على رؤياك.

سأخفي في درج مكتبي الفصول الأخيرة من روايتي. سقطت طائرة مؤخرًا. إنها مسألة تُريحني لأنه لم يحدث قطُّ أن وقع حادثان متتاليان. سأنتظرك إلى جوار الباب بالتنورة القصيرة التي تروقك. يحتوي الانتظار على كل كوارث العالم. سأُبرد النبيذ وسأشتري الزيتون وجبن الماعز الناشف. يُمكن أن تسقط الطائرات وهي في وسط الجو. سأجهز قائمة بما لم أحكه لك في الهاتف لكيلا أنسى شيئًا. عدني بأن شيئًا لن يحدث لك. سأقرأ بصوت مرتفع كل المقاطع التي أشرتُ

إليها في جهازي الـ"كيندل". كان أبي قويًّا كشجرة جوافة. سأطبخ لك الـ"ريزوتو" بلبن جوز الهند أو ربَّما الحمص مع الكسكسي. لم أقرر بعد. حتى الأشجار القوية، تسقط.

أفضل شيء اليوم هو أنني سأعدُّ الساعات الباقية على رؤياك.

إنها كثيرة جدًّا وقليلة جدًّا. يوجد الزمن فقط لأننا نبتكره. سأفشل في العد على الأرجح. لست جيدة في مسألة الأرقام. لم أكن جيدة فيها قط. ربَّما لهذا السبب، أكتب. يروقني أن أفعل أشياء ليست لها فائدة، مثل النظر إلى السقف وكتابة ما أشعر به وأنا أنتظرك. أحتاج إلى التوقف عن التفكير عما سأفعله إن لم تصل. لا يهمّني كم ساعة سيستغرقها الأمر، لكن لتصل. خبأتُ النصوص في الدرج الذي تعرفه كي تتمكن من العثور عليها. يروقني أن يصبح سرّنا الوحيد تظاهرنا بوجود سرٍّ بيننا. أعتقد أنه السرّ الوحيد في العالم الذي يكشف ولا يحجب. صرتَ تعرفني الآن أفضل من طريقة كتابتي، وأنا أعرفك أفضل من طريقة قراءتك لي. لا تتوقف عن هذا الأمر أبدًا. أنتظرك في كل مقطع بنفس الصورة التي أنتظرك بها أمام بابي. حينما أكتب أتعرّى من دون أن أترك ثوبًا واحدًا فوقي. يمكنني أن أقول إنك تعرفني أفضل من نفسي، ومع ذلك، قررتَ أن تبقى معي. لهذا أنتظرك. أنا أفكر فيك. ها أنا ذي أكتبك لكيلا أضطر إلى تذكر ما شعرت به في ذلك اليوم الذي ظللتُ أنتظر فيه أبي... أبي أنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أعشق حركاتك في ساعة رحيلك: دخولك مرَّة أخرى إلى فراشي حتى بعد ارتداء حذائك، وتصفيف شعرك بعد أن حولتُه بنفسي إلى كارثة، وإدخال قميصك في بنطلونك. أعشق عودتك من الناصية، وعبورك للشارع مرَّة أخرى. أعشق قرعك بابي مجدَّدًا من أجل قبلة أخيرة، تلك التي لن تصبح القبلة الأخيرة، لأنك ستعود مرَّة أخرى. أعرف الأمر. ستعود حتى وإن ركبتَ سيارة الأجرة، لأنك ستطلب من سائقها أن ينتظرك بضع ثوان أخرى، لأنك سترجع مرَّة ثانية من أجل هذه القبلة الأخرى التي تركتَها عند طرف فمي. أعشق أنك ستكتب لي رسالة بمجرد أن تغلق باب السيارة لتُخبرني بأنك تفتقدني. أعشق أيضًا أن ما تقوله سيكون حقيقيًّا.

أعشق أنك لا ترضى، وأنك تود المزيد، وأنك تعود للمطالبة به وأنت تلتهمني بنظرتك وتعض شفتك السفلية بأسنانك العلوية، وأنك لا تريد إنهاء المكالمة، حين نتحدث عبر الهاتف، حتى وإن حكينا كل ما يُمكن حكيه، فقط لأنك تودّ أن تستمر في سماع ضحكتي وصوت تنفسي.

أعشق معانقتك لي من خصري، وملاحقتك لي في كل أنحاء البيت، وإظهار ضعفك وعدم ثقتك، وتأكيدك أنك

مِلكي، حتى وإن لم تكن مِلكي، وأنني مِلكك، حتى وإن لم أكن مِلكك، لكننا نتظاهر بهذا الأمر على فترات. أعشق أيضًا رغبتك في العودة، قبل أن ترحل أصلًا، وأن تحدد تاريخ لقائنا المقبل، لأنك مؤمن بالمرات المقبلة، حتى مع شخص مثلي، يقدم قليلًا من اليقين ولا يؤمن باللا نهائية، ويخرج للهرولة يوميًّا لكيلا يفقد عادة الهرب.

تروقني لأنك لا تدخر جهدًا كي أعرف أن الغد يُمكنه أن يجد مكانًا بيننا، حتى وإن فزعتُ كلَّما أظهرتَه لي. تروقني لأنك تظن نفسك أبديًّا وما زلتَ تجهل إفراطي في الفناء. أنت تعرف بالفعل أنني أحمل فوق كاهلي صدمة كبيرة وأنني معتادة على رحيل من أحبُّهم من دون وداع. أعرف أنه من الممكن أن تعبر باب الخروج ذات صباح وألا تعود لتعبره في ذات المساء، وأن أي ابتسامة قد تكون الأخيرة، وأن أي إيماءة قد تكون الأخيرة، وأن الخطوات أمام غرفتي قد تكون الأخيرة، كتلك المرَّة التي لم تشهد سببًا كي يفكر المرء في أن المرَّة الأخيرة موجودة أصلًا، ومع ذلك كان لها وجود.

لهذا السبب، لهذا السبب فقط، استمِرَّ في إبعاد أمواتي عني. استمِرَّ في شفاء جراحي. عدَّ كل المرات الضرورية حتى تقنعني بأنك ستعود فعلًا. استمِرَّ في إظهار أنك لا تود أن ترحل حتى يأتي يوم لا مناص فيه من الرحيل، أو حتى يأتي اليوم الذي لا مناص فيه من البقاء.

حددتُ معها موعدًا في الخامسة مساء، لكنني وصلت قبل ذلك لأشرب كوبًا من الرُم. ظل الموضوع يلف ويدور طيلة عشرين عامًا داخل رأسي وأنا أبحث عمن أحكيه له. لم أودّ أن يمر وقت أطول من هذا من دون أن يعرف شخص ما من عائلتها الأمر. لا أعرف لِمَ اخترتُها هي. ربَّما لأن اسمها وصورتها في "فيسبوك" أعجباني. ربَّما لأنني فكرت في أنه من الأفضل أن تكون امرأة هي من تستوعب موضوعًا كهذا.

تعرفت عليها من بعيد، على الرغم من أنني لم أرها شخصيًّا قط، إذ سارت ببطء، كمن يرغب في إرجاء لقاء، لكنه في نفس الوقت لا يمكنه مقاومة حضوره. حينما اقتربتْ أكثر تيقنتُ من أنها هي، لأنني رأيت في عينيها نفس الحنين إلى الماضي المُستقر في عينيّ. لا بد أنّها في مثل عمري، تقريبًا، لكننا معشر الرجال سيئون دائمًا في هذا النوع من الحسابات، كما أنه يصعب تخمين أعمار النساء اللاتي لديهن شعر طويل ويرتدين الأحذية الرياضية. لم تتحدث كثيرًا. لم أعرف ما إذا كان خجلًا أم خوفًا أم ما إذا كانت الكآبة قد ابتلعت كلماتها. أفترض أنها كلّ الأمور معًا. وافقتْ على شرب قهوة من دون سكر. لم تتذوقها تقريبًا. لم تودّ أن تأكل شيئًا.

لربما وددتُ أن أتحدث في البداية عن شؤون أخرى، إذ إنني لم أعرف شيئًا عنها إلّا الصمت الموجود داخلها وهذه النظرة التي شابها نفس الاستسلام الذي شاب نظرتي؛ أو هذا الأثر الشفاف الذي تتركه الأحزان غير المحسومة. وددتُ أن أسألها كيف حال إخوتها أو أبنائها، هذا إن كان لديها أيٌّ منهم، لكنني لم أعرف من الذين يشغلون أفكارها أصلًا.

أجبرني كلُّ هذا الصمت على التحدث، وعلى أن أقول بصوت عال كلَّ الكلمات التي علقتْ في حنجرتي طيلة عشرين عامًا لتخنقني بثقلها، وعلى أن أسمح في النهاية بخروج تلك القصة التي تدربتُ أكثر من مرَّة داخل ذهني على حكايتها.

حكيت لها أن أبي قُتل منذ عشرين عامًا في أحد أيام شهر مايو. حكيت لها أن قاتلًا مأجورًا أطلق النار عليه. حكيت لها أنه مات على الفور، وأنهم لم يسمحوا لنا بترميد جسده تحسبًا لإجراء تحقيق. حكيت لها أنه لم يحدث أي تحقيق لأنه ما من أحد يحقق في أي شيء في هذا البلد الملعون.

*****

الصمت. دائمًا الصمت ولا شيء سواه. لم تسمح الشرطة ولا النيابة ولا المحققون بترميد الجسد، تحسّبًا لاحتياجهم إلى إخراج رفاته بحثًا عن أدلة. لم تصدر منهم كلمة واحدة. لا وجود للمقبوض عليهم أو المشتبه بهم أو التحقيق. الصمت

فقط، حتى تحلّل جسد أبينا تحت أرض شجرة المانجو.

تعفن داخل تابوته منتظرًا العدالة التي مارسها كثيرًا وهو حي. أنتجت هذه الشجرة ثمارها في عشرين حصادًا، بمعدل حصاد واحد في العام. حينما لم نتمكن من العودة، صارت مقبرته عجينًا من ثمار المانجو المتعفنة والحشائش الضارة التي توقفنا عن اقتلاعها. لا زلت أختلج من رائحة الفاكهة المتحللة. لو أن ثمة سببًا يجعلني لا أطيق محلات الزهور، فهو أنها تذكرني بالزهور الذابلة فوق مقبرته. ذهبنا في كل أحد لزيارة مقبرته، كلّما استطعنا. سكن قدر كبير من الألم في قطعة الأرض الصغيرة هذه. تفكّكنا كلّما ذهبنا إلى هناك، وشق علينا كثيرًا أن نتماسك من جديد، وكلّما أوشكنا على تحقيق الأمر، جاء الأحد من جديد. حذرونا بعدئذٍ من أن العودة ليست آمنة، فلم نعد.

لطالما بقينا نحن أيضًا صامتين بعد أن تعبنا من التكهن، ومن التساؤل حول السبب الذي دفع أبانا إلى البحث يوميًّا عن طريق مختلفة لاصطحابنا إلى المدرسة، ولماذا لا ينام جيدًا، ولماذا باع السيارة التي استعملها طوال حياته. بقينا صامتين ونحن نخمن الأسباب التي أصر كثيرًا بسببها على تقديم نُذر إلى "سيدنا الراكع"، ولماذا لم يقل شيئًا عن خطابات التهديد التي عثرنا بعدئذٍ عليها في دُرج مكتبه، ولماذا لم يخطر على باله إخبارنا بأنهم يسعون إلى قتله بعد أن بات وجوده مزعجًا كالحشائش الضارة.

أعدنا تخيل مشهد الاغتيال ألف مرَّة بالمعلومات القليلة التي توفرت لدينا. وقفت جارة البيت الأمامي في شرفتها حين وصل أبي لتناول الغداء في بيت الجدة. لما نزل من السيارة دهمه قاتل مأجور، فيما انتظره واحد آخر على متن دراجة نارية ليفرّا هاربين. شهدَتْ بأن القاتل قال اسمه مرتين، قبل إطلاق هذه الرصاصة الوحيدة، وكأنه فعلها ليتأكد من أنه هو. قالت إن أبي حاول أخذ السلاح من يديه، لكنه سقط على الفور، وإنها لم تر في حياتها قطُّ دمًا يهجر العروق التي لطالما سكنها بمثل هذه السرعة.

قال قريب لنا كان موجودًا في بيت الجدة إنه خرج لما سمع الطلقة، لكنه لم يعثر إلّا على جسد ساقط فوق الأرض يغرق في بركة الدماء التي لم تتوقف عن الانبثاق من شريانه الفخذي. لا يعرف أحد ما رأته الجدة، لأنها قرّرت أيضًا أن تظل صامتة لعلها تنسى ما شعرتْ به حين رأت ابنها يموت أمام باب بيتها إذ جهلت أن الصمت تحديدًا هو ما يجعل المرء لا ينسى، لكن لكل منا طريقته في التعامل مع ألمه.

منذ شهر مايو ذلك، مررنا بوصفنا عائلة بعدة مراحل: الحزن، والقلق، والغضب، وفي النهاية الاستسلام. يبدو أن هذا هو ما تتقلص إليه المآسي حينما يقبل المرء ضياع كل شيء، لكن الاستسلام يستغرق وقتًا. حدث هذا معنا جميعًا. بعدئذٍ، اندمجنا مع هذه الكتلة الصامتة، وانشغلنا بمحاولة العيش، والغياب يتربص بنا في الخلفية، فظن الناس أننا نسينا،

كأن هذه الأمور يُمكن أن تُمحى من عقل المرء. لا، لا يتوقف المرء ولو ليوم واحد عن التفكير فيها؛ إنها أفكار ثابتة يقطعها أحيانًا تتابعُ أمور أخرى ندعوها إجمالًا "الحياة".

كان على شجرة المانجو أن تنتج حصادها عشرين مرَّة كي أتلقى جزءًا آخر من المعلومات. إنها رسالة بعثها لي شخصٌ مجهول على "فيسبوك" وجاء فيها: "سارة. أنتِ لا تعرفينني، لكن يجب أن أحكي لكِ شيئًا عن أبيك. إنه شأن يهمك".

*****

أنصتتْ باهتمام إلى كل ما حكيته لها، وهي تحاول تفسير لماذا تشبه قصتي قصتها جدًّا. لاحظتُ أن شفتيها ترتعشان وأنها لم تُقرب فنجان القهوة منهما إلّا لإخفاء الأمر. شق عليها النظر إليَّ باستمرار، لأن عينيها اغرورقتا بالدموع وأفترض أنها لم تودّ أن تنهار أمام شخص غريب.

تجرعتُ ما تبقى من كوب الرُم. رنت قطع الثلج كأجراس كلَّما لامسَتْ الزجاج. وضعتُ الكوب بصورة خاطئة عند حافة الطاولة، فسقط والتصقت قطع الزجاج بنعال أحذيتنا. أشرت إلى النادل كي يجلب لي كوبًا آخر. شق عليَّ التنفس. إنها مسألة تحدث لي كلَّما شعرت بالتوتر، إلى درجة اضطررت معها إلى أخذ نفس كبير من الهواء لأتخطى شعور الاختناق، ومواصلة إخبارها بأن بعض القتلة المأجورين المسلّحين اقتحموا الجنازة وسألوني عن اسم القتيل، وحينما قلت لهم

الاسم، المختلف تمامًا عن ذلك الذي انتظروه، أجبروني على فتح التابوت ونظروا داخله. حكيت لها أنهم قالوا: "اللعنة! لقد أخطأنا"، وأنّ كل من كانوا في قاعة سهرة العزاء تحجروا كتماثيل، وهم يتابعونهم بنظراتهم حين سارعوا بالتوجّه نحو المخرج. حكيت لها أن أباها قد قُتل بعدئذٍ بخمسة عشر يومًا في نفس الحي ونفس الساعة. حكيت لها أنني أدركت النبأ لأن أباها كان محاميًا معروفًا، ولأن حادث موته ظهر في الجريدة. حكيت لها أنني تعرفت عليه عبر الصورة التي نُشرت في الصحافة لأنني كنت موجودًا حين اشترى أبي سيارته.

بقينا صامتين. بكينا في صمت. انتحبنا في صمت. شعرتُ بالأسى في مرّات عديدة وشعر الناس بالأسى في مرّات كثيرة من أجلي، لكنني في تلك اللحظة، علمت معنى أن تشعر بالأسى وأن تكون سببًا فيه في نفس الوقت.

اكتشفنا أن الجرح يؤلم أكثر مما ظننا. عرفنا آنذاك أنه سيظل يؤلم طيلة العمر. لم تتوقف عن البكاء، بتلك الدموع الصامتة لمن أصابه الإنهاك من كثرة البكاء. إنها دموع تعرف مجراها جيدًا لأنها مَن شقَّتْه من كثرة انسيابها فوق وجهها، ومضت دائمًا في نفس المسار الذي يبدأ من عند العينين، بمحاذاة الأنف، لتلامس الشفتين، قبل أن تضيع فوق العنق في النهاية.

في تلك الأثناء، قلَّبتْ في صمت قهوتها الباردة المرَّة التي لم تشربها قط. أفلتتْ تنهيدة بين الحين والآخر. لامستُ أنا

طرف كوب مشروب الرُم بأصابعي وتابعتُ بنظرتي نقاط الماء وهي تنزل فوق الزجاج. أعتقد أن كلًّا منا بحث عن أعذار لكيلا يضطر إلى النظر إلى وجه الآخر.

وددتُ أن أعانقها وأن أمسح دموعها وأن أمسك بيديها وأن أفعل أي شيء يخفّف من شعور الهجران الذي رافقها طيلة حياتها، لكنني لم يكن لديَّ شيء لأقدمه إليها لأنني كبرت وأنا أشعر بنفس الشيء. صحيح أنني عشت لحظات شديدة الحدة في حياتي، لكن أيًّا منها لم يجمعني قطُّ مع شخص كل ما أعرفه عنه هو اسمه.

بقينا في صمت. فقط حينما تتلاقى قصتان مثل هاتين، لا يبقى شيء يُمكن قوله. بعدئذٍ، أمسكتْ وجهها بيديها. أمكن للمرء أن يرى من بين أصابعها القوة التي ضغطتْ بها على جفونها، فيما يحاول فمها، الذي لا هو مفتوح ولا هو مُقفَل، أن يستنشق الهواء. لربما وددتُ أن أسألها ما الذي تفكّر فيه. لقد خطر لي في تلك اللحظة تحديدًا أنني ربَّما جعلتها تشعر بالذنب، لكن كان الوقت قد تأخر على سحب هذه الكلمات التي أفرجتُ عنها أخيرًا، بعد احتجازها طيلة كل هذه السنوات. إنها مسألة احتجتُ إليها في محاولتي للتعافي.

يقولون إن الألم يُقوي المرء، لكننا بعد وقت طويل من الألم المتراكم، بدونا كطفلين هشّين على وشك الانكسار. على الأرجح تحطّمنا بشدة طيلة عشرين عامًا، إلى درجة أننا

كنّا لا نزال عاجزين عن جمع كلِّ أجزائنا. على الأرجح، كنّا شيئًا لا يُمكن إصلاحه مثل ذلك الزجاج المكسور الذي علِق بنعال أحذيتنا.

جاء النادل ليسألنا هل نحتاج شيئًا ما، لكن أيًّا منه لم يجبه. ساحت قطع ثلجي تقريبًا. استمرت القطرات في انزلاقها فوق الزجاج، وبقينا صامتين وشبه دائخين من ضوضاء صمتنا.

فجأة، نهضتْ من مقعدها في صمت وغادرت، بذات الخطوات البطيئة التي وصلت بها؛ بنفس طريقة المشي الحزينة التي تبدو أنينًا. مضت في صمت عبر الشارع وهي تترك وراءها مسارًا صغيرًا للدموع فوق الرصيف. سارت بمحاذاة أشجار الجوافة المزروعة على جانب الطريق. سارت وركلت بغضب الثمار الساقطة، فرفعت من حولها الرائحة المتخمرة للجوافة المتحللة، لأنه شهر مايو، ولأن الحصاد -ككل شهور مايو- قد آن أوانه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هيا مُت. مُت مرَّة أخرى إلى الأبد. اجعل أوراق هذا الكتاب قبرك، وبدلًا من أن تغطّي نفسك بالتراب، افعلها بكل هذه الكلمات التي سكتنا عنها. كتبتُها هذه المرَّة بحبر لا ينمحي، لكيلا تزول، ولكيلا أندم على قولها، ولكيلا تنجح الرياح في اقتلاعها من على طرف لساني. كتبتُها قبل أن يُقنعني الصمت بالاحتفاظ بها، وقبل أن تختنق بها حنجرتي، وقبل أن يَدهمني الموت، موتي أنا. أنت من علمني أن أي مرَّة قد تصبح المرَّة الأخيرة.

خذ هذه الكلمات، كأنها رصاصات في الهواء. أنت أكثر من يعلم أنها لا يُمكن أن تُردَّ بمجرد إطلاقها. أنت الهدف. اتركها تخترقك. لن تلطخنا بالدم، بل بالحبر. ليس الألم نتيجتها، بل التحرّر. هذا وعد.

أقتلك بالكلمات لأنها سلاحي الوحيد. أقتلك لأنني منهكة من محاولة إبقائك حيًّا في رأسي. أقتلك كي تعيش في هذا الكتاب. إن غيابك فجوة لا تُملأ أبدًا. إنه خواء لا أود الاستمرار في النظر إليه، فقد نظرتُ إليه حتى أضناني الأمر.

حان وقت النظر إلى مكان آخر. لا تختبر تصويبي. لا تدع هذا الأمر يصبح محاولة أخرى فاشلة. أحتاج إلى أن تموت مجدَّدًا، وتأكد من أنك ستموت في هذه المرَّة إلى الأبد.

# شكر

إلى روبيس، على القراءة، والانتظار طيلة عامين، والإيمان بي، حتى حينما لم أومن بنفسي.

إلى ماما، على نموذج العزيمة الذي مثّلَتْه. لولا جرعاتها الكثيرة من: "لا- تفكر- في- هذ- الأمر"، لما وصلتُ إلى هذه النقطة.

إلى إخوتي لأنهم علَّموني الشجار والدفاع عن نفسي، ولأنهم سمحوا بظهور أسمائهم في هذا الكتاب.

إلى خوانبا، على قراءته وعلى تصحيحه، وعلى العنوان، وعلى تنظيم الفوضى.

إلى خابيير ساجارنا وإيلينا بيلمونتي لأنهما علّماني أمورًا كثيرة.

إلى زملائي في مدرسة كُتّاب مدريد لأنهم تحمّلوا دموعي.

إلى أليكساندرا باريخا وإكتور آباد فاسيولينسي لأنهما

آمنا كثيرًا بي منذ البداية، ومع ذلك تمكّنا من منحي الأجنحة اللازمة كي أحلّق أعلى وأعلى بمرور الوقت.

إلى ماريا فاسي لأنّها عثرت عليّ.

إلى أبي الذي لم يعد يعيش تحت التراب، وإنّما في هذه الصفحات. لا يخطر على بالي مكان أفضل للعيش من كتاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# كيف قتلتُ أبي

سارة خاراميّو كلينكيرت

تغوص سارة خاراميّو كلينتكيرت في أعمق ذكرياتها وتسعى إلى مواجهة مخاوفها وأشباحها بشجاعة مستعينة بالكتابة في محاولة التجرّد من الألم، فتحكي لنا بلغة مرهفة الأثر المهول الذي خلّفه اغتيال قاتل مأجور لوالدها وهي في الحادية عشرة من عمرها.

اعتمدت المؤلفة في «كيف قتلت أبي؟» على كتابة ذاتيّة صادقة ستصدم القارئ وتلمس قلبه من السطر الأول. لا يرتبط الأمر فقط بالألم والهجران وكيفية تعاطي الإنسان معهما بكل الصور الممكنة؛ وإنما بصورة الأب والأم والأخ والعائلة ككلّ، وبأمور كثيرة ربّما يظن المرء أنه يعرفها، لكنه لا يعرفها حق المعرفة.

سارة خاراميّو كلينكيرت (ميديين، 1979): عملت في مجال الصحافة مع أغلب وسائل الإعلام الكولومبية الكبرى، حصلت على درجة الماجيستير في فنّ السرد من مدرسة الكُتّاب في مدريد. «كيف قتلت أبي؟» هي باكورة أعمالها وصدرت في 2020.

telegram @soramnqraa

@daralkhan_kw